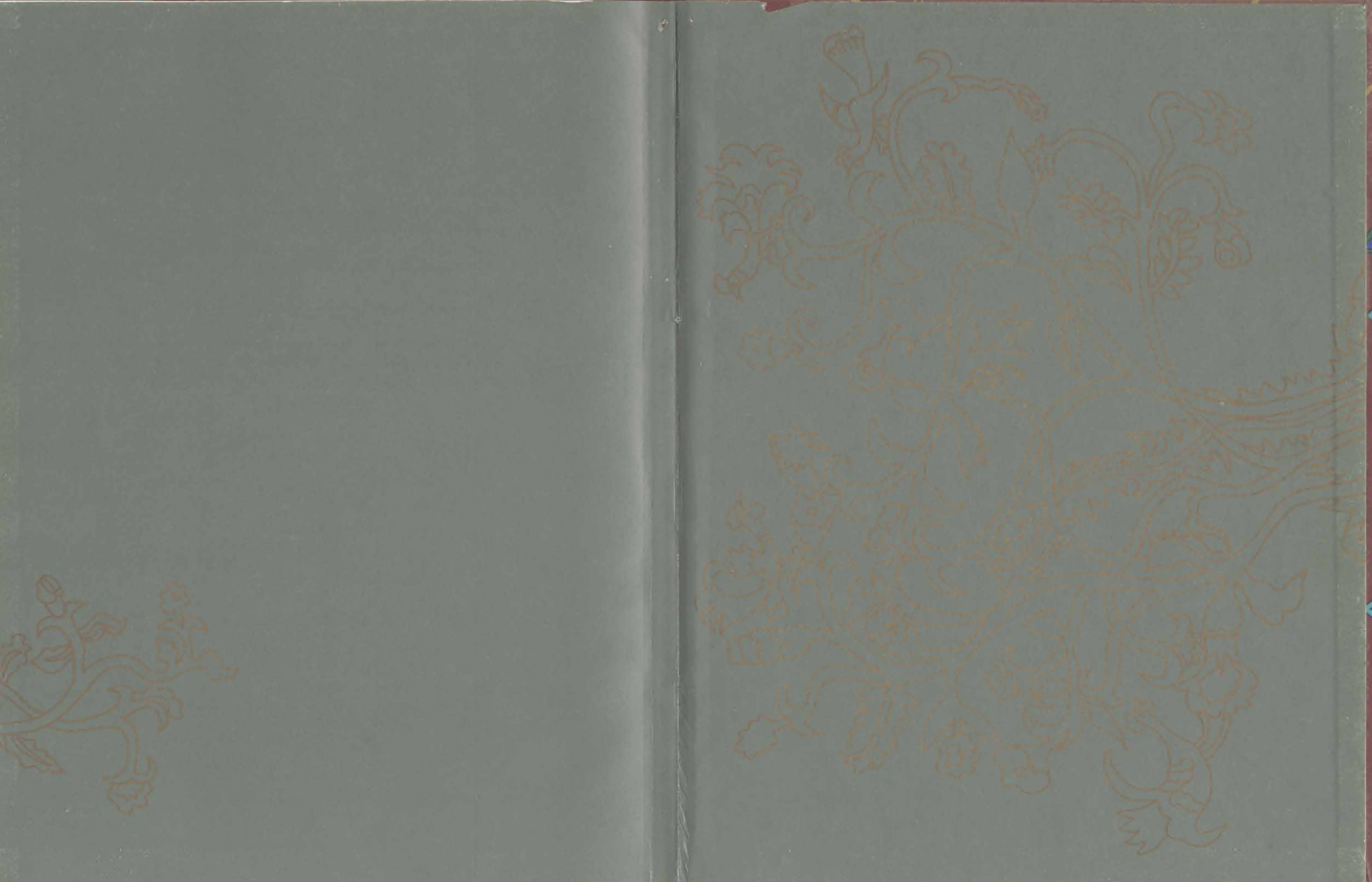


حياة محمد صلى الله عليه وسلم

فى عشرين قصّة

تأليف : عبد التواب يوسف

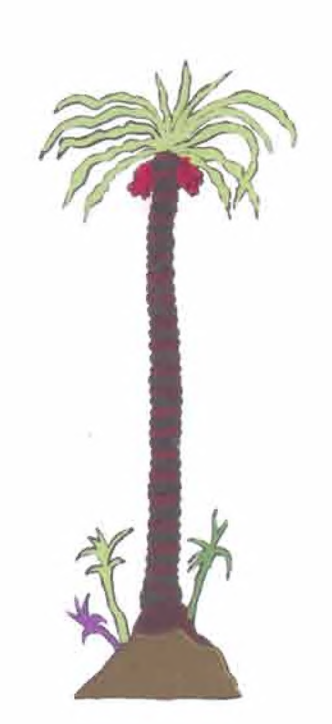
رسوم : صلاح بيصار



حياة محمد صلى الله عليه وسلم

فى عشرين قصة

تأليف : عبد التواب يوسف — رسوم : صلاح بيصار



دار الشروق

الكتاب الذى فازت عنه دار الشروق بجائزة الآفاق الجديدة ٢٠٠٠
من معرض بولونيا العالمى لكتب الأطفال
متفوقا بذلك على ١٤٠٠ كتاب من ٣٠ دولة. وقد جاء فى حيثيات قرار منح الجائزة:
«إن هذا الكتاب محاولة ناجحة لإعادة تقديم عظمة الثقافة العربية باستخدام أجمل أساليب ومواد العصر فى تكامل يجسد قدرة الناشر على صهر عناصر الفكرة والحوار والرسم والإخراج والطباعة، مطبقا أحدث أساليب الغرب فى الإبداع والتجانس والإبهار البصرى وإنه يخدم بحق فى الربط بين الثقافات».

الكتاب الحائز على جائز أوريليو بيتشى الإيطالية لخلق عالم أفضل لأطفال الغد
وقد جاء فى حيثيات قرار منح الجائزة:
«منحت الجائزة لدار الشروق لدورها فى تشجيع الثقافة والأخلاقيات الرفيعة بين جيل الأطفال والناشئة وذلك بتناول حياة النبى محمد [ﷺ] بأسلوب مبسط ومؤثر وبمساعدة الرسوم الملائمة فى كتاب يعكس نموذجا يحتذى فى مجال النشر للأطفال على المستوى الدولى».

الكتاب الحائز على جائزة أفضل ناشر لكتاب الطفل
فى جائزة السيدة سوزان مبارك ١٩٩٩

الطبعة الثانية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

حياة محمد صلى الله عليه وسلم
فى عشرين قصة
المؤلف : عبد التواب يوسف — رسوم : صلاح بيصار

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٩/٤٦٩٩
ISBN 977-09-0537-2

دار الشروق، القاهرة، ٨ شارع سيبويه المصرى، رابعة العدوية، مدينة نصر، ص.ب ٣٣ البانوراما
تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بريد إلكترونى dar @ Shorouk. com



أنا كِتَاب

وأنا سَعيدٌ بهَذَا كَثيرًا . .

وأشْعُرُ بأنّى أغْلَى شَىءٍ فى الوُجُود، وأنَّ وَرَقى أغْلَى منْ أوْرَاقِ المَالِ والنُّقُود. والسّبَبُ فى ذلكَ:

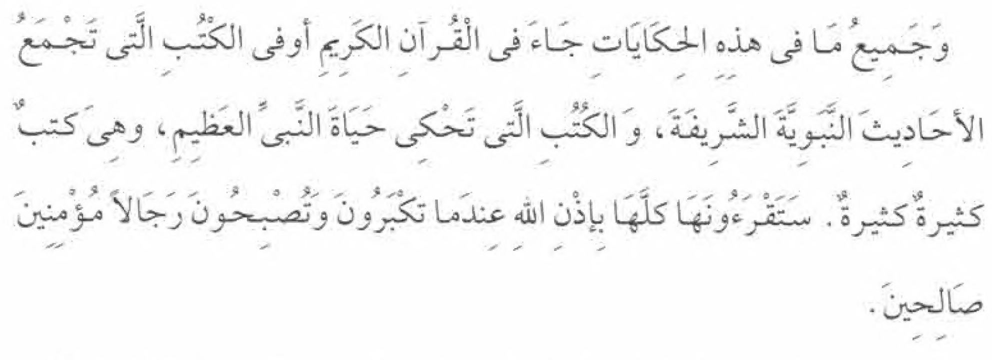
* أنَّ اللهَ حينَ أرادَ أنْ يَهْدىَ البَشَرَ، بَعَثَ إلَيْهِمْ بكِتَابٍ . . كِتَابٍ مُقَدَّسٍ . . فالتَّوْرَاةُ كتَابٌ، والإنْجيلُ كِتَابٌ، والقُرْآنُ الكَرِيمُ كِتَابٌ.

* وأنّنى كِتَابٌ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتِمِ النَّبيِّينَ والمُرْسَلينَ، الّذى أرْسَلَهُ اللهُ للنّاسِ كَافّةً . . هَاديًا ودَاعيًا إلى الحَقِّ والخَيْرِ والمَحَبّةِ والسّلامِ للنّاسِ أجْمَعينَ.

* وأنّنى كتابٌ للنّاشئينَ . . الصّغَارِ . . الأطْهَارِ . . أحْبَابِ الله، وأحْبَابِ مُحَمّدٍ الرّسُولِ الكَريمِ.



منْ شدّةِ فَرْحَتى باسْمى وعُنْوانى وقُرّائى، أقُولُ هذه الكَلمَاتِ لكَىْ أقدّمَ نَفْسى، وأقدّمَ هذه الحكَايَاتِ الّتى أحْملُهَا بَيْنَ أوْرَاقى. وهىَ حكَايَاتٌ واقعيّةٌ حَقيقيّةٌ، حَدَثَتْ هىَ كُلُّهَا، وجَميعُ مَا فيهَا صدْقٌ، وإنْ جَاءَتْ علَى ألْسنَةِ الحَيَوانَاتِ والأشْياءِ . . الّتى تُحبُّونَ يَا قُرّائى الأعزّاءِ أنْ تَسْمعُوا الحكَايَاتِ علَى ألْسنَتِهَا.



وجَميعُ مَا فى هذه الحكَايَاتِ جَاءَ فى القُرْآنِ الكَريمِ أوفى الكُتُبِ الّتى تَجْمَعُ الأحَاديثَ النّبَويّةَ الشّريفَةَ، والكُتُبِ الّتى تَحْكى حَيَاةَ النّبىِّ العَظيمِ، وهىَ كُتُبٌ كثيرةٌ كثيرةٌ. سَتَقْرَءُونَهَا كلّهَا بإذْنِ الله عندمَا تكْبَرُونَ وتُصْبحُونَ رِجَالاً مُؤْمنينَ صَالحينَ.

وقَدْ قَامَ المؤلّفُ عَبْدُ التّوّابِ يُوسُفُ بقرَاءَةِ كلِّ هذه الكُتُبِ، ليُقَدّمَ لكُمْ أيُّهَا الأحْبَابُ الأطْهَارُ قصّةَ حيَاةِ النّبىِّ الحَبيبِ بهذه الطّريقَةِ الجَديدَةِ.



وأنا وَاثقٌ بأنّكُمْ سَتَقْرَءُونَهَا كُلّهَا باهْتمَامٍ شَديدٍ وسُرُورٍ . . وبأنّكُمْ سَتَفْرَحُونَ كَثيرًا بهَا وبمَا فيهَا منْ قصَصٍ جَميلَةٍ ورَائعَةٍ، ومنْ مَعَانٍ وأخْلاقٍ نَبيلَةٍ وسَاميَةٍ . . وبأنّكُمْ سَتُعيدُونَ بَعْدَ ذَلكَ قرَاءَتَهَا مرّاتٍ ومرّاتٍ ومرّاتٍ. وأنّكُمْ سَتَظَلُّونَ تَذْكُرُونَ أحْدَاثَهَا ومَعَانيهَا . . وأنّكُمْ سَتُحبُّونَ النّبىَّ الكَريمَ العَظيمَ منْ كلِّ قُلُوبكُمْ، وأنّكُمْ سَتَعْمَلُونَ دائمًا علَى الاقْتداءِ به وبأخْلاقه العَظيمَةِ.

والآنَ . . وقَدِ اسْتَبَدَّ بكُمُ الشّوْقُ لمَعْرفَةِ أحْدَاثى . .

قلّبُوا أوْرَاقى . .



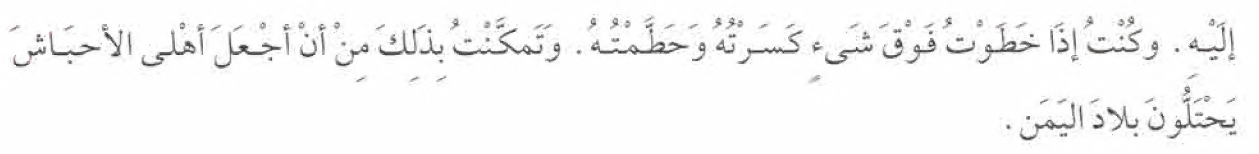
أنا فِيلٌ



لى خُرْطُومٌ طَوِيلٌ . . ولكنَّنى لَسْت فيلاً فى غَابَة ، أوْ فى حَديقَة الْحَيوَان . بَلْ عشْتُ مُنْذُ زَمَن بَعيد . . وكَانَتْ لى شُهْرَةٌ كَبيرَةٌ ، وحكَايَةٌ غَريبَةٌ أُحبُّ أَنْ تَعْرِفُوهَا .

بَدأتْ حكَايَتى فى بلاد الْحَبَشَة . وكُنْتُ أعيشُ حُرًّا بيْنَ الأشْجَار ، إلَى أن اصْطَادَنى أهْلُ الْحَبَشَة . وعنْدَمَا وَجَدُوا أنِّى فيلٌ قَوِىٌّ عَظيمٌ ، ضَمُّونى إلَى الْجَيْش ، وَسَافَرْتُ مَعَ الْجَيْش إلى الْيَمَن .

وكَان النَّاسُ يَخَافُونَنى ، ويَرْتَعشُونَ عنْدَمَا يَسْمَعُونَ بقُدُومى ، لأنِّى كُنتُ أنْشُرُ الخَرَابَ فى كُلِّ مكَان أذْهَبُ إلَيْه . وكُنْتُ إذَا خَطَوْتُ فَوْقَ شَىء كَسَرْتُهُ وحَطَّمْتُهُ . وتَمكَّنْتُ بذَلكَ منْ أنْ أجْعَلَ أهْلى الأحبَاشَ يَحْتَلُّونَ بلادَ اليَمَن .



وأكْرَمَنى الْقَائدُ «أبْرَهَةُ» وَجعَلَنى الْفيلَ الخَاصَّ به ، ورَفَضَ أنْ أحملَ الأحْجَارَ والأخْشَابَ للْمَعْبَد الكَبير الّذى كَانَ يَبْنيه . فَقَدْ كَانَ يَبْنى مَعْبَدًا هائلا ليُصْبحَ أعْظَمَ منْ ذَلكَ الْمَعْبَد المَوْجُود فى مكَّةَ ، والّذى كانَ النَّاسُ منْ كُلِّ مكان يَزُورُونَهُ . وقَدْ أقَامَ «أبْرَهَةُ» فى مَعْبده الكَبير كَعْبَةً من الذَّهَب حَتَّى يَحُجَّ النَّاسُ إلَيْهَا بَدَلاً منْ أنْ يَحُجُّوا إلى كَعْبَة مكَّةَ . غَيْرَ أنَّ النَّاسَ لَمْ تأت إلى كَعْبَة «أبْرَهَةَ» ، واسْتَمَرُّوا فى الذَّهَاب إلى مكَّةَ .

وَضَاقَ «أبْرَهَةُ» بذَلكَ وَغَضبَ ، وَقَرَّرَ أن يَهْدمَ كَعْبَةَ مكَّةَ . وبذَلكَ لا يَجدُ النَّاسُ أمَامَهُم غَيْرَ الْكَعْبَة الَّتى بَنَاهَا من الذَّهَب فَيأْتُونَ إلَيْهَا .

وأعَدَّ «أبْرَهَةُ» جَيْشًا كَبيرًا لكَىْ يُحَاربَ به مكَّةَ ، وأهْلَ مكَّةَ . . . وكُنْتُ ضمْنَ هَذَا الْجَيْش بالطَّبْع ، ليرْكَبَنى الْقَائدُ «أبْرَهَةُ» الّذى سَيَسيرُ فى أوَّل الْجَيْش . . وكَانَ «أبْرَهَةُ» يَنْوى أنْ أحْملَهُ حَتَّى الكَعْبَة . .

كَعْبَة مكَّــةَ . وعنـدمَا أميلُ عَلَيْهَا بجسَمِى الضَّخم فَسَوْفَ أهْدِمُهَا . وكَثيرًا مَا فَعَلْتُ هَذَا فـى بُيُوت أعْدَاء «أبْرهَة» .

والْحقيقةُ أنَّنى لَمْ أكُنْ رَاضيًا عَنْ هَذَا العَمَل . ولَكنْ ، لَمْ أسْتَطعْ أنْ أرْفُض الذَّهَابَ مَعَـهُمْ . وقَدْ سرْتُ وَجَيْشُ «أبْرهَة» حَوْلى ، والْجُنُودُ يتكَلَّمُونَ عَنْ مكَّةَ وأهْلها . . وعَن الْكَعْبَة وَحكَايَاتها .

وَعَرَفْتُ أنَّ الَّذى بَنَاهَا نَبىٌّ اسْمُهُ إبْرَاهيمُ عَلَيْه السَّلامُ ، وأنَّ ابْنَهُ إسْمَاعيلَ اشترَكَ مَعَهُ فى الْبنَاء . وقَالُوا إنَّ إبْرَاهيمَ كَانَ صَاحبَ مُعْجزَات ، فَقَدْ رَمَاهُ قَوْمُهُ فى النَّار ولَمْ تُحْرقْهُ .



وَعَرَفْتُ أنَّ هَذه الْكَعْبَةَ شَريفَةٌ ، وأنَّها فى بَيْت الله الحَرَام ، وأنَّ هَذَا الْبَيْتَ الحَرَامَ بَيْتٌ آمنٌ ، يَدْخُلُهُ النَّاسُ فَلاَ يَمَسُّهُمْ أحَدٌ بضَرَر أو سُوء ، ويَهْبطُ فيه الْحَمَامُ فَلا يَصْطَادُهُ أحَدٌ ولا يَقْربه أحَد . إنَّهُ مكانٌ هَادئٌ آمنٌ ، مُقَدَّسٌ . . . يُحبُّهُ النَّاسُ ويَحْتَمُونَ فيه ويُصَلُّونَ .

وَعَرَفْتُ منَ الْجُنود أنَّ أهْلَ مكَّةَ خَافُوا عنْدمَا سَمعُوا عَنّى ، وعنْدمَا عَرَفُوا أنِّى ذَاهبٌ إلَيْهمْ ، لأنَّهُم سَمعُوا عنْ قُوتّى ، وقُدْرَتى عَلَى هَدْم كُلِّ مَا فى طَريقى .

ولَمْ يكُنْ قَدْ بَقىَ لَنَا لكَىْ نَصل إلى مكَّةَ سوَى لَيْلَة وَاحدَة وبَعْدَهَا لَنْ تَبْقَى الْكَعْبَةُ ،



وَسَوْفَ تنهدمُ مكَّةَ . ولَمْ يكُنْ هُنَاكَ جَيْشٌ يَعْتَرضُ طَريقَنا أوْ يَمْنَعُنَا منَ التَّقَدُّم . الطَّريقُ مَفْتُوحَةٌ ولاَ أملَ فى أنْ تَنْجُو مكَّةُ أوْ تُفْلتَ منَّا الْكَعْبَةُ . وكَانَ كُلُّ مَنْ فى الْجَيْش يَنْظُرُ إلَىَّ فى إعْجَاب . وكَثيرًا مَا قَالَ لى بَعْضُهُمْ :

تَقَدَّمْ يَا بَطَلُ . . . سرْ يَا فيلَ «أبْرهَة» يا أعْظَمَ الأفْيَال !

وَفيمَا نَحْنُ نَتَعَجَّلُ الْوُصُولَ إلى مكَّةَ ، تَجيئُنا روَايَةٌ عَنْ عَبْد الْمُطَّلب زَعيم مكَّةَ ، تَجْعَلُنا جَميعًا نُفكِّرُ فى مَعْنَاهَا ، وتَجْعَلُنَا جَميعًا نَهتزُّ منْهَا .

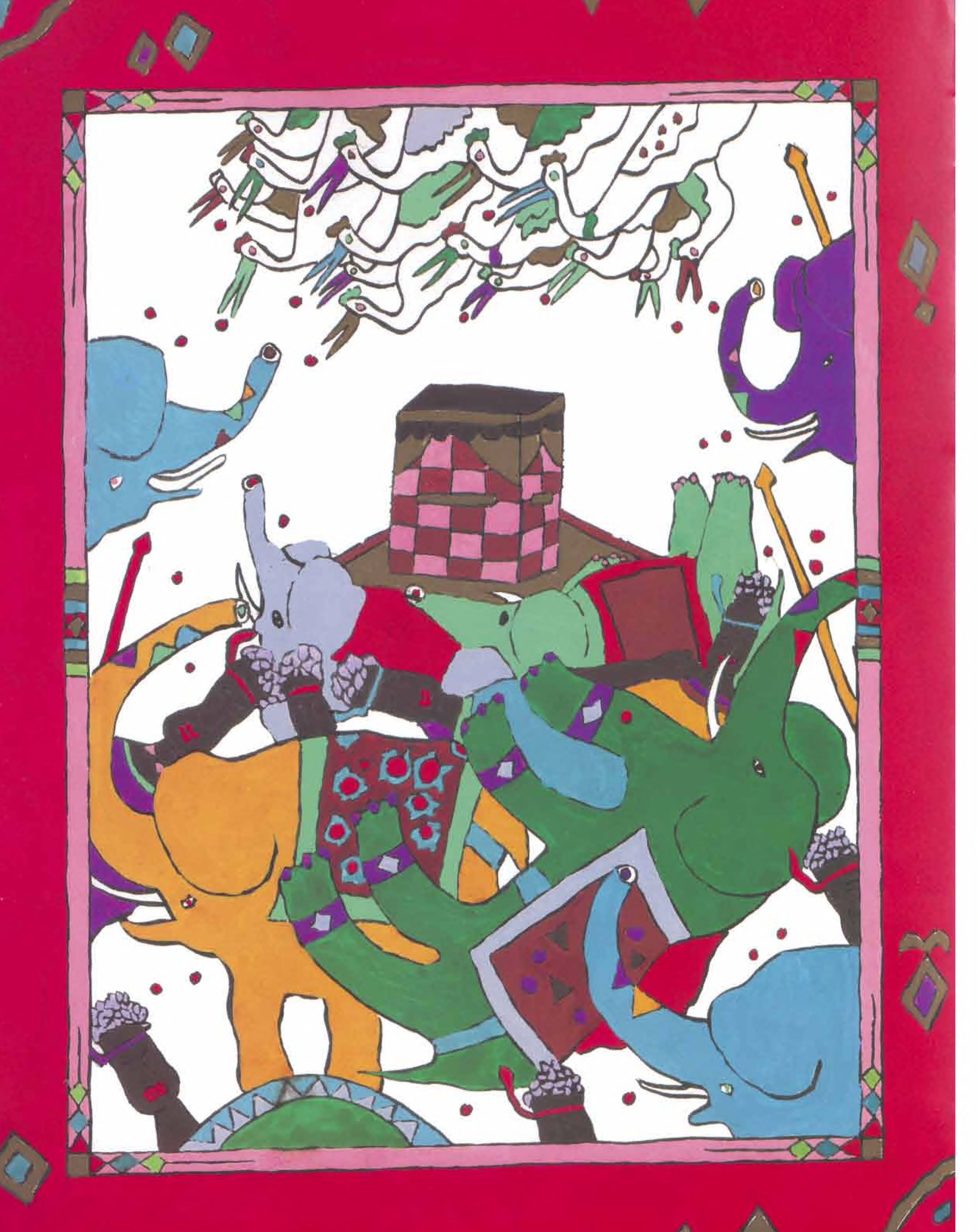
قالُوا إنَّ عَبْدَ المطَّلب لما عَلمَ أن «أبرهة» وَجَيشَهُ وأنَا سَنَهْدم الْكَعْبَةَ ، لَمْ يَخَفْ ، بَلْ قَالَ :

«للْبَيْت رَبٌّ يَحْميه» .

هَذه الْكَلمَةُ الْكَبيرَةُ الَّتى قَالَهَا عَبْدُ الْمُطَّلب ، جَعَلَتْنى أخَافُ . لَقَدْ أصْبَحْتُ أنَا الْخَائفَ . . أنَا الْفيلُ الرَّهيبُ الَّذى أمُرُّ وسْطَ أىِّ مَدينَة ، وفى لَحْظَة أجْعَلُهَا خرَابًا ولاَ يَبْقَى منْهَا بَيْتٌ واحدٌ قَائمٌ فى مكَانه .

خفْتُ منْ هذه الْكَلمَة الَّتى قَالَهَا عَبْدُ الْمُطَّلب . وبَدأتُ لاَ أقْدرُ عَلَى السَّيْر . شَعَرتُ بتَعَب شَديد . ولَمْ أكُنْ وَحْدى الَّذى أحَسَّ بهذَا . . بَلْ كُلُّ الأفْيَال ، وكُلُّ الْخُيُول ، وكُلُّ الْجمَال ، وكُلُّ الْجُنُود . . أصْبَحُوا غَيْرَ قَادرينَ عَلَى السَّيْر .

ولَمْ ألْبَثْ أنْ وَجَدتُ نَفْسى أقفُ مكَانى . . لَمْ أقْدرْ عَلَى التَّحَرُّك ، كأنَّ أرْجُلى التَصَقَتْ بالأرْض . . تَسَمَّرتْ فيهَا . . لا أسْتَطيعُ نَقْلَهَا منْ مكَانهَا خُطْوةً وَاحدَةً ، فى الطَّريق إلى مكَّةَ .



انْزَعَجَ «أبْرهَةُ» هو والجُنُودُ. أدَارُونى إلَى الْخَلْف فتَمكَّنْتُ منَ السَّيْرِ. أدَارُونى إلى اليَمين فَاسْتَطَعْتُ الْمَشْىَ. أدَارُونى إلى الْيَسَار فَخَطَوْتُ بِبَسَاطَة! وَعنْدَمَا جَعَلُونى فى اتِّجاه الْكَعْبَة عَجَزْتُ عنْ أنْ أتَحَركَ! ضَربُونى. . جَذَبُونى. . دَفَعُونى. . لَسَعُونى بالنَّار، وَمَعَ ذَلكَ ظَلَلْتُ فى مكانى. . لَنْ أذْهَبَ إلى مكَّةَ، لَنْ أهْدمَ الْكَعْبَةَ مهْمَا فَعَلْتُمْ مَعى! كانُوا لا يُريدُونَ أن أرْجعَ إلا إذا خَلَّصْتُهُمْ منْ مكة وكَعْبَتها وأهْلها.

وَفَجأةً. . حَدَثَ شىءٌ عَجيبٌ. .
رأيْتُ بعَيْنَىَّ طَيْرًا تُغَطِّى السَّمَاءَ كُلَّهَا، فَلا تُظْهرُ منْها شَيْئًا. . حَتَّى إنَّ الدُّنْيَا أظْلَمَتْ، وَلَمْ أعُدْ أسْتَطيعُ أن أعْرفَ هَلْ أنَا فى حُلْم، أمْ أنَا صَاح أرَى مَا حَوْلى! وَسَمعْتُ الْجُنُودَ يَصْرخُونَ:

هَذه طَيْرٌ أبَابيلُ، تَرْمى بحجَارَة منْ سجِّيل.

وَتَسَاقَطَتْ عَلَيْنَا حجَارَةٌ صَغيرَةٌ، رُبَّمَا لا تَزيدُ عَلَى حَبَّة الفُول أو الْقَمْح. . يَنْزلُ الْحَجَرُ الْوَاحدُ منها عَلَى أضْخَم فيل منْ زُمَلائى، فَإذَا به يَرْقُدُ عَلَى الأرْض. . يَسْقُطُ عَلَى أكْبَر جَمَل فَإذَا به يَبْركُ عَلَى الرَّمْل. . يهْبطُ عَلَى أضْخَم رَجُل فَإذَا به يَنْتَهى وَيَمُوتُ. . وَوَجَدْتُنى أنَا الْفيلَ الشَّهيرَ أنْظُرُ إلى مَا حَولى وأرْتَعش. لَقَدْ دَمَّرْتُ الْكثيرَ فى حَيَاتى، وَلكنَّنى لَمْ أشَاهدْ مثلَ هَذَا الَّذى أرَاهُ يَحْدُثُ. . وَوَجَدْتُنى أرْكَعُ وأنَا أرَى من بَعيد نُورًا يَمْتَدُّ بَيْنَ الأرْض وَالسَّمَاء. كانَ هَذَا النُّورُ حَوْلَ مكَّةَ. . وَرأيْتُ عَبْدَ الْمُطَّلب

زَعيمَ قُرَيْش من بَعيد، يَقفُ ليَتَقَبَّلَ التَّهْنئَةَ منَ النَّاس، وكَلمَةُ «مَبْرُوك» تَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسنَتهم. . لأنَّ جَيْشَ «أَبْرَهَةَ» قَدْ انْتَهَى، ولَنْ يَسْتَطيع أن يَدْخُلَ مكَّةَ أوْ يَهْدمَ الْكَعْبَةَ!

وكَانَ عَبدُ المُطَّلبَ يَحكى لمَنْ حَولَهُ مَا رآهُ فى المَنَام. . لَقَدْ رأى كَأنَّ سلْسلَةً منَ الفضَّة خَرَجَتْ منْ ظَهْره، لَهَا طَرَفٌ فى الأَرْض وَطَرَفٌ فى السَّمَاء. . وَظَهَرَتْ هَذه السِّلْسلَةُ بَعْدَ قَليل كأَنَّها شَجَرَةٌ، وَعَلَى وَرَقَة منْها «نُور» وَتَعَلَّقَ بها كُلُّ النَّاس.

وَفَسَّرَ السَّامعُونَ الحُلْمَ لعَبْد الْمُطَّلب عَلَى أنَّ ابْنَهُ عَبْدَ الله سَيُرْزَقُ ابْنًا يَتَعَلَّقُ به النَّاسُ فى الشَّرْق وفى الغَرْب. . وَبَشَّرُوهُ. . وَهَنَّئُوه. . وَسألوه:

- مَاذَا تُسَمِّيه؟

أجَابَ: أسَمِّيه مُحَمَّدًا. . ليَحْمَدَهُ مَنْ فى الأَرْض وَمَنْ فى السَّماء.

وكَانَتْ مَعَ بُشْرَى مَوْلد مُحَمَّد نهَايَتى، أنَا الْفيلَ الشَّهير. . وَنهَايَةُ «أَبْرَهَةَ» وَجَيْشه الكبير. . وَبَقيَتْ مكَّةُ، وَبقيَت الْكَعْبَةُ، وَستَبْقَى إلى آخر الدَّهْر، خَالدَةً عَزيزَةً، تَتَّجهُ إليها أمَّةُ مُحَمَّد خَمْسَ مَرَّات كُلَّ يَوْمٍ وَهى تُصَلِّى لله، الَّذى أرْسَلَ إلَيْهمْ نَبىَّ الهُدَى، عَلَيْه أفْضَلُ الصَّلاة وَالسَّلام.

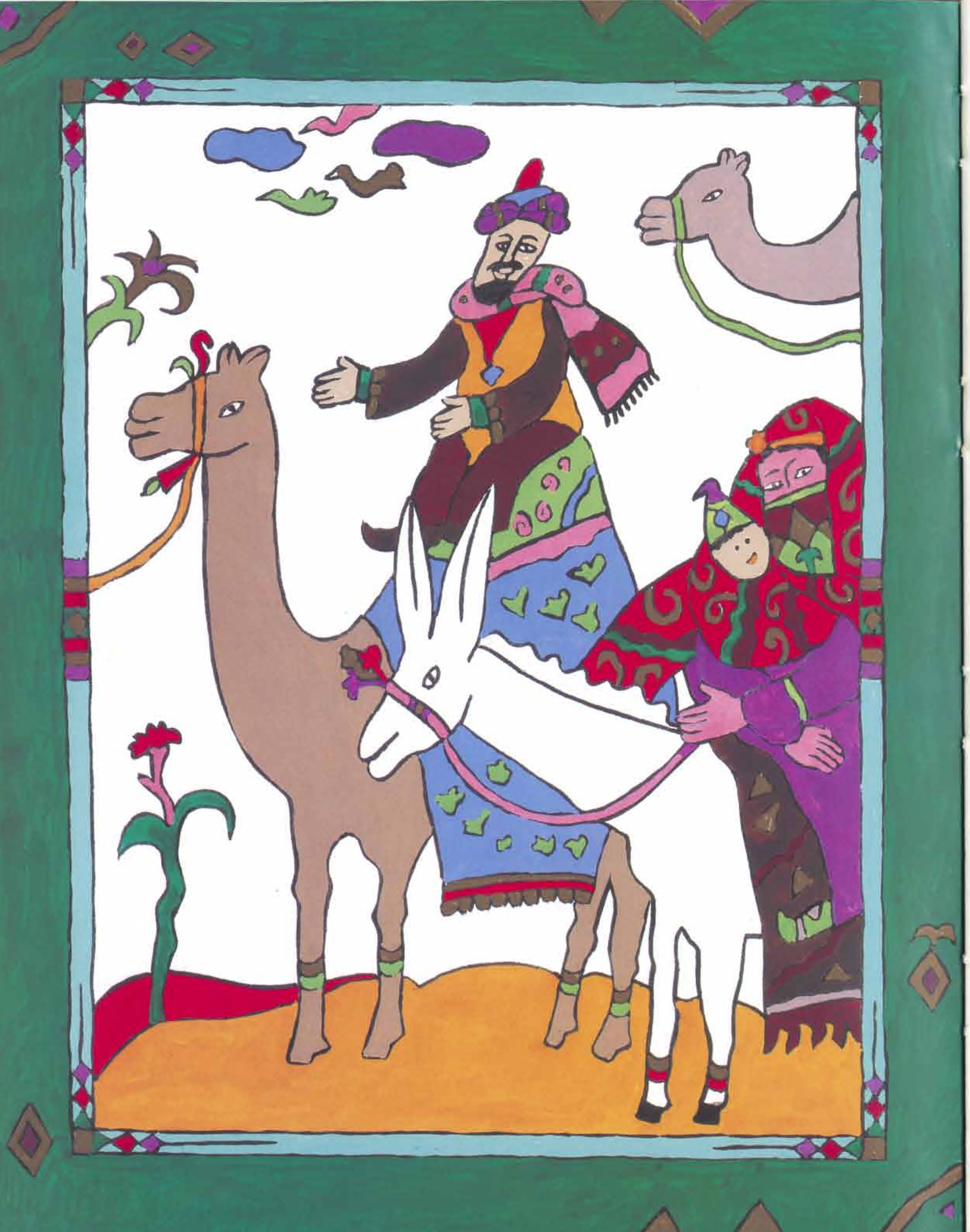
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأَصْحَاب الْفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فى تَضْليلٍ * وأَرْسَلَ عَلَيْهمْ طَيْرًا أَبَابيلَ * تَرْميهمْ بحجارةٍ مِّنْ سجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾.

صدق الله العظيم



الحِمَارَةُ تَحْكِى





عِشْتُ مُنذ مِئاتِ السِّنينَ في الصَّحْراء. عِنْدَ سَيِّدَة اسْمُها «حَليمَةُ السَّعْدِيَّة». . وكَانَتْ حليمَةُ تَشْتَغِلُ مُرْضِعَةً، تُرضِعُ الأطْفالَ بَدَلَ أمَّهاتِهِمْ. فَلَمْ يكُنْ في تِلْكَ الأيَّامِ لَبَنٌ صِنَاعيٌّ في الْعُلَب. وكَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَب في ذَلكَ الْوَقْت أنْ يُسَلِّمُوا أطْفَالَهمْ لِمُرْضِعَة تَأخُذُهُمْ لِيَعيشُوا مَعَهَا في الصَّحْرَاءِ.

وكَانَتْ حَليمَةُ فَقيرَةً مِسْكينَةً، تَعيشُ هِيَ وَزَوْجُهَا «الْحارِثُ» في خَيْمَة، في مِنْطَقَة قَليلَةِ المَطَرِ، قَليلَةِ الْخُضْرَة، قَليلَةِ الْخَيْر. وكُنْتُ أنَا نَحيفَةً هَزيلَةً.

وَذَاتَ يوْمٍ، أخَذَتْني حَليمَةُ أمَامَ الخَيْمَة. فَفَرِحْتُ، لأنَّني حَسبْتُ أنِّي ذَاهِبَةٌ إلَى المَرْعَى مَعَ الْغَنَم، آكُلُ بَعْضَ الْعُشْبِ الأخْضَر. لكنَّ حَليمَةَ رَكِبَتْني وَمَعَهَا طِفْلُها الصَّغيرُ الّذي لا يَسْكُتُ عَنِ الْبُكَاءِ، وَرَكِبَ زَوْجُها نَاقَةً عجُوزًا. وسِرْنَا في الصَّحْرَاء.

كَانَ الْجَوُّ حَارًا، وكُنْتُ أنْقُلُ أقدامي بِصُعُوبَة. . لأنِّي كُنْتُ في الْحَقيقَة تَعبَة، وكُنْتُ غَيْرَ قَادرَة عَلَى السَّيْر. وكَانَ الطِّفْلُ لا يَزَالُ يَبْكي، فَأرَادَتْ حَليمَة أنْ تُرْضِعَهُ لِيَسْكُتَ. فَلَمْ تَجِدْ في ثَدْيَيْها نُقْطَةَ لَبَن وَاحدة. فَقَالَ لهَا زَوْجُها:

- كَيْفَ تَذْهَبِينَ لِتَأتي بِطِفْلٍ آخَرَ تُرْضِعينَهُ، وأنْتِ لَيْس عِنْدك لَبَنٌ لِطفْلك؟

فَرَدَّتْ علَيْه:

- عِنْدَمَا أحْضِرَ طِفلاً آخَرَ لأرْضِعَهُ، سَيَدْفَعُ لي أهْلُهُ بَعْضَ المال، فَأشْتَري بِهِ الطَّعام، وعِنْدَمَا آكُلُ

وأتَغَذَّى يُصْبِحُ فى صَدْرى لَبَنٌ أعطيه للاثْنَيْنِ . ألا تَعْرِفُ؟ الْمُهِمُّ أن أجِدَ طِفْلاً غنيا يَقْدِرُ أهْلُهُ على أنْ يَدْفَعُوا لى مَبْلَغًا كَبيرًا منَ المال .

وأرَدْتُ أن أعْرِفَ إلَى أيْنَ نَذْهَبُ . فَسَألْتُ النَّاقَةَ الَّتى تَعْرِفُ طُرُقَ الصَّحراءِ أكْثَرَ مِنِّى ، فأجابَتْ :

ـ سَنَذْهَبُ إلى مَكَّة .



فَرِحْتُ كَثيرًا عِنْدَمَا سَمِعْتُ اسْمَ مَكَّة . وَأحْسَسْتُ عَلَى الْفَوْرِ بِنَشاطٍ وَقُوَّةٍ عَلَى السَّيْرِ . وأخَذْتُ أسيرُ بَلْ أجْرى . . بِسُرْعَة! كَيْفَ؟ لا أدْرى!

وأسْرَعْتُ لِدَرَجَةِ أنَّنا وَصَلْنَا مكَّةَ قَبْلَ جَميعِ مَنْ سارُوا قَبْلَنا ، وشكَرَتْنى حليمةُ لأنِّى أعْطَيْتُها فُرْصَةً أكْبَرَ لِتَسْبِقَ غَيْرَها ، وَتَخْتارَ الطِّفْلَ الَّذى سَتُرْضِعُه .

وَراحَتْ حَليمَةُ تَبْحَثُ هُنا وَهُناكَ . وَبَعْدَ وَقْتٍ طَويلٍ عادَتْ إلَيْنا مُتْعَبَةً وحَزينَة . وَسَمِعْتُها تَقُولُ لِزَوْجِها :

ـ يَظْهَرُ أنَّنا سَنَرْجِعُ كَمَا جِئْنَا . سَنَرْجِعُ وَمَعَنا الْجُوعُ وَزادَ عَلَيه التَّعَبُ .

حَزِنْتُ لَها . مِسْكينَة . لَمْ يَقْبَلْ أحَدٌ أن يُعْطِيَها طِفْلَهُ ، لأنَّها كانَتْ تَبْدُو فَقيرَةً وَصِحَّتُها ضَعيفَة .



وَبَعْدَ أن اسْتَراحَتْ قَليلاً ، رَجَعَتْ ثَانِيَةً تَبْحَثُ مِنْ جَديد . وَغَابَتْ مَرَّةً أخْرَى . وَفَجْأةً . . رَأيْنَاها تَجْرِى إلَيْنَا . . سَعيدَةً . . سَعيدَةً . . وَنَادَتْ على زَوْجِها بِصَوْتٍ فيه فَرْحَةٌ :

ـ الحَمْدُ لله . .

سَعِدْنا نَحْنُ أيْضًا وَفَرِحْنا مَعَها . . فَقَدْ وَجَدَتْ طِفْلاً .

وَعِنْدَمَا وَصَلَتْ إلَيَّ ، شَمَمْتُ رَائِحَةً مِثْلَ المِسْك . . حُلْوَةً . . حُلْوَة . إنَّها رائحةُ الطِّفْلِ الَّذى أحْضَرَتْه . كانَتْ تَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْها . وَكانَ طِفلاً وَديعًا حُلْوًا جَميلاً . . جَميلاً . . كالْبَدْرِ!

اقْتَرَبَ مِنْهُ الْحَارِثُ زَوْجُها ، وَنَظَرَ فى وَجْهِه ، فَفَرِحَ بِه هُوَ الآخَرُ فَرَحًا كَبيرًا ، وَسَألَهَا :

ـ ابْنُ مَنْ هُوَ؟ وَما اسْمُهُ؟

ـ اسْمُهُ مُحَمَّد . مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِب سَيِّدُ قُرَيْشٍ وَزَعيمُها . وَأبُوهُ عَبْدُ الله تُوُفِّيَ وَالطِّفْلُ فى بَطْنِ أمِّه . فَهوَ يَتيمٌ . وَأمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْب ، مِنْ كَرائمِ سَيِّداتِ العَرَبِ وَمِنْ شَرائفِ بُيُوتِهِمْ .

ظَهَرَتِ السَّعَادَةُ وَالسُّرُورُ عَلى وَجْهِ الْحارِث وَهُوَ يُساعِدُ حليمَةَ لِتَرْكَبَ وَمَعَها مُحَمَّدٌ وَطِفْلُها . . طِفْلُها الَّذى رَآيْتُه هُو أيْضًا فَرِحًا سَعيدًا . . وَيَضْحك!

وَرَكبَ الْحارثُ النَّاقَةَ وَانْطَلَقْنَا. وجَدْتُ نَفْسى أسيرُ، بَلْ أجْرى بسُرعَةٍ غَريبَة. سَبَقت مَنْ خَرَجُوا مَعَنا مِنْ مكَّةَ. ثُمَّ لَحقْتُ مَنْ سَبَقُونا. وكُنْتُ أحسُّ بالْقُوَّة وأشْعُرُ بالشِّبَع كَأنِّى كُنْتُ وَاقفَةً طُولَ الْوَقْت فى المَرْعَى آكُلُ وَأشْرَبُ. وكَانَتْ نَاقَةُ الْحارث تسابِقُنى هِىَ الأخْرَى وتَجْرى كأنَّها حصان!

وَصلْنا الْخَيْمَةَ.. خَيْمَةَ حليمَةَ وَالْحَارث.

وَصلْنا.. وبَدأ الخَيْرُ الكَثيرُ يَجيءُ إلَيْنَا. تَغَيَّرَت الْحَالُ تماماً بَعْدَ عودَتنَا. مُنْذُ شُهور طَويلَة، لَمْ تُمطر السَّماءُ نُقْطَةً وَاحدَةً. وَإذَا بالسَّحاب يَتَجمَّعُ، وَالْمَطَر يَنْزلُ، ويُرْوى الأرْض، وتُصْبحُ الأرْضُ خَضْرَاءَ كَثيرَةَ الْمَرْعَى. ونَجدُ ـ نحن الْغَنَمَ وَالنَّاقَةَ وَأنا ـ العُشْبَ الَّذى يكْفينَا، وَالْمَاءَ الَّذى يرْوينا. لَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَىء.. الأرْضُ.. السَّمَاءُ.. الْجَوُّ.. النَّاسُ.. الْغَنَمُ.. الْخَيْمَةُ.. كُلُّ شَىء أصبَحَ أفْضَلَ.. كُلُّ شَىء أصْبَحَ أجْمَلَ.. مُنْذُ جَاءَ الطِّفْلُ مُحمَّد.



وَحَليمَة.. كَانَتْ فى مُنْتَهى السَّعَادَة. كَانَتْ مِنْ قَبْلُ لا تَجدُ لَبَنًا يكفى طفْلَهَا وَحْدَهُ. فَأصْبَحَ عنْدَهَا لَبَنٌ يكْفيه وَيكْفى الطِّفْلَ مُحَمَّداً، ويَزيدُ علَى حاجَتهما. كَانَتْ سَعيدَةً.. سَعيدَةً بمَا أصْبَحَتْ فيه منْ خَيْر كَثير ورزق وَفير. وكَذَلكَ كَانَ زَوْجُها سَعيداً مثْلَها.

وكَثيراً مَا كَانَتْ حَليمَةُ تَرْكَبُنى ومَعَها الطِّفْلُ مُحَمَّدٌ. كَانَتْ أسْعدَ لَحْظَة عنْدى أن يرْكَبَنى مَعَها. كُنْتُ أسيرُ بهمَا فى شَمْس الصَّحْرَاء دُونَ أن أتأثَّرَ

بحرارتها الشَّديدة . كُنْتُ أحسُّ كأنَّ هناكَ سَحابةً تُظَلِّلُنا منَ الشَّمسِ ، وتَقينا حرارتَها المُحرِقَة .

وعندَما أصبحَ عُمرُ مُحمَّد عامَيْن ، فُطِمَ عنِ الرَّضاعة ، وكانَ على حليمةَ أن تُرْجِعَهُ إلى أمِّه . فركبَتْني وهُوَ معَها ، وسِرْتُ بهما إلى مكَّة . كانَتْ حليمةُ طُولَ الطَّريقِ صامتةً غارقةً فى تفكيرٍ عميق .

دخَلْنا مكَّةَ ، ووصَلْنا بيتَ مُحمَّد ، ونزلَتْ حليمةُ به إلى أمِّه . وبَعْدَ قليلٍ ، سمعْتُ صوْتَ حليمةَ من الدَّاخل . سمعْتُها ترْجُو السَّيِّدةَ آمنةَ أن يبْقَى مُحمَّدٌ عندَها فترةً أخْرَى . وأخذَتْ حليمةُ تستعطفُ السَّيِّدةَ آمنةَ حتَّى رقَّ قلْبُها ، ووافقَتْ على أن يعُودَ معَنا مُحمَّدٌ .

وعُدْنا . . ونحن نكادُ نطيرُ منَ الفرحِ . كُنْتُ أجْرى جرْيًا . وكانَ كُلُّ منْ يرانى لا يُصدِّقُ أنَّنى فعْلاً حمارةُ حليمةَ !

دخَلْنا على الحارث . لمْ يُصدِّقْ عيْنيْه منَ الفرَحِ . عادَ مُحمَّدٌ معَنا !

وأقامَ مُحمَّدٌ ثانيةً معَنا . فاستمرَّ الخيْرُ واستمرَّت البركةُ ، واستمرَّتْ سعادتُنا وفرْحتُنا به . ومرَّتْ أيَّامٌ وشُهُور . .

وذاتَ يوْمٍ . . جاءَ ابنُ السَّيِّدةِ حليمةَ يجْرى ويصْرُخُ :

لَقدْ جاءَ رجُلان ، يرْتديان ملابسَ بيْضاءَ ، ناصعةَ البياض ، وأخذا أخى مُحمَّدًا .

صرخَ الحارثُ :

أخذاهُ ؟ ! إنَّهُ وديعةٌ عندنا ، ونحْنُ مسْئُولُونَ عنْهُ وعنْ سلامته .

استمرَّ الطِّفْلُ يحْكى :

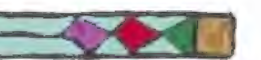
- وفتحَ أحدُهُما صدْرَ مُحمَّد ، وبحثَ الثَّانى فيه عنْ شىءٍ أخْرجهُ . ثُمَّ انصرفَ الاثْنان وابْتعدا عن المكان .

قامتْ حليمةُ وزوْجُها يجْريان ، بحْثًا عنْ مُحمَّد . وجريْتُ أنا الأخرَى لأرَى ما حدَث . فوجدْنا مُحمَّدًا واقفًا فى هُدُوء ، والبسْمةُ العذْبةُ تملأُ وجْهَهُ المُشْرِقَ الحبيب .

رغْمَ أنَّهُ كانَ سليمًا وبخيْرٍ وعافية ، فقدْ خافتْ حليمةُ وخافَ الحارثُ . وقرَّرا أن يُعيداه إلى أهْله .

وتركنا مُحمَّدٌ . ولكنَّهُ تركَ لنا الخيْرَ الَّذى جاءَ معَهُ . تركَ لنا المطرَ والخُضْرةَ . . والرِّزْقَ الوفير . . وتركَ لنا السَّعادةَ والبهْجةَ والفرْحةَ . . الفرْحةَ التى زادتْ عندَما عرفْنا فيما بعْدُ قصَّةَ الرَّجُلين . لقدْ كانا ملاكَين من الملائكة جاءا وقاما بغسْلِ قلْبِ مُحمَّدٍ وتطْهيره ، إعْدادًا لهُ لحمْلِ الرِّسالةِ الكُبْرَى . . رسالةِ الإسْلام . . عليْه الصَّلاةُ والسَّلام .

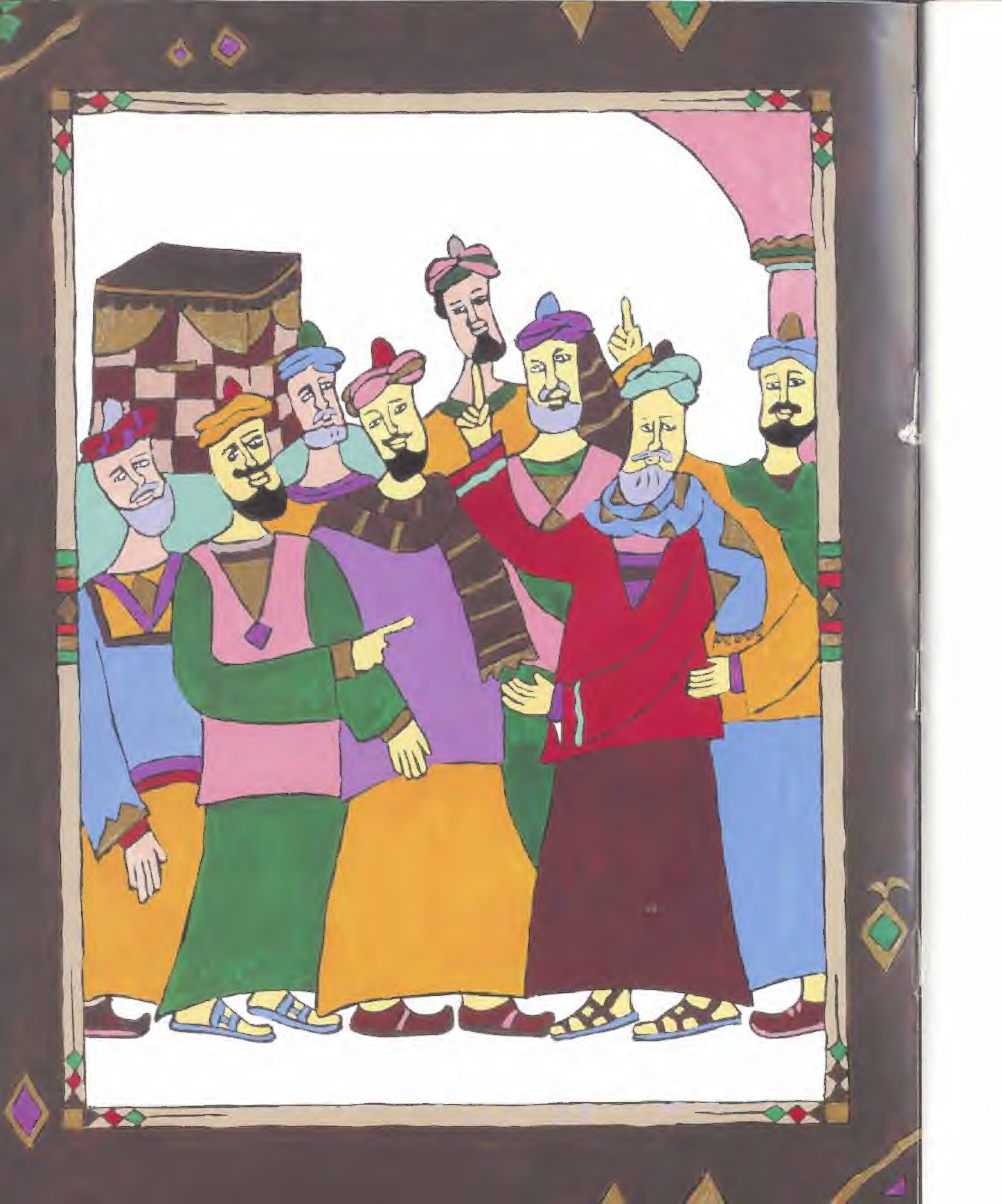




أنا حَجَرٌ







ولكنى غَيْرُ الأحْجارالّتى يُبْنَى بها لكُم البَيْتُ وَالْمَدْرَسَةُ وَالمصْنَعُ.

أنَا حَجَرٌ غَال . . أغْلَى منْ كُلِّ الأحْجَار الكَريمة . أغْلَى منَ اللُّؤْلؤ، وأغْلَى منَ اليَاقُوت، وأغْلَى منَ المرْجان . .

أنَا حَجَرٌ وَحيدٌ . . فَريدٌ . . ليسَ لى مَثيل . .

أنَا حَجَرٌ قَديمٌ مُقَدَّسٌ. لى مكانى فى الكَعْبَة الشَّريفة الَّتى بَنَاهَا إبْرَاهيمُ وَوَلَدُهُ إسْمَاعيل . . أنَا الْحَجَر الأسْوَد!

وَعندَما جَدَّدَ أهْلُ مكَّةَ بناءَ الْكَعْبَة، اشْتَرَكُوا جَميعًا فى البناء. وبَعْدَ أن انْتَهَوْا منْ كُلِّ شَىء أرَادُوا أنْ يَضعُونى فى مكانى . . فَاخْتَلَفُوا!

وَقَامَ النِّزَاعُ بَيْنَ قَبائل مكَّةَ. كُلُّ قَبيلَة منْهُمْ كَانَتْ تُريدُ أن تَفُوزَ بشَرَف حَمْلى وَوَضْعى فى مكانى. وكَانَتْ كُلُّ قَبيلَة مُسْتَعدَّةً لأنْ تُحَارب وَتُقَاتل منْ أجْل أنْ تَفُوزَ بهَذَا الشَّرَف.

اشْتَدَّ الخلافُ، وَارْتَفَعَت الأصْوَاتُ، وَتَكَهْرَبَ الجَوُّ، وأخَذَتْ كُلُّ قَبيلَة تُجَهِّزُ السُّيوفَ وَتَسْتَعدُّ للْقتال حَتَّى لا يَفُوتَها شَرَفُ حَمْلى وَوَضْعى فى مكانى.

كَبُرَ الأمْرُ وَاتَّسَعَ، وأصْبَحَ منَ الصَّعْب أنْ يَتَّفقُوا. وكُنْتُ أشْعُرُ بالخَطَر يَشْتَدُّ وَأحسُّ بالقتال يُوشكُ أنْ يَقَع. وَشَعَرْتُ بمَسْئُوليَّتى، فَأنَا السَّبَبُ. دَعَوْتُ اللهَ أن يَتَّفقُوا، فَنَحْنُ فى الْكَعْبَة، فى الْبَيْت الْحَرَام . . بَيْت الأمْن وَالسَّلام . . وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمنًا.

فَجأةً، ارْتَفَعَ صَوْتٌ عَاقلٌ يَقُول:

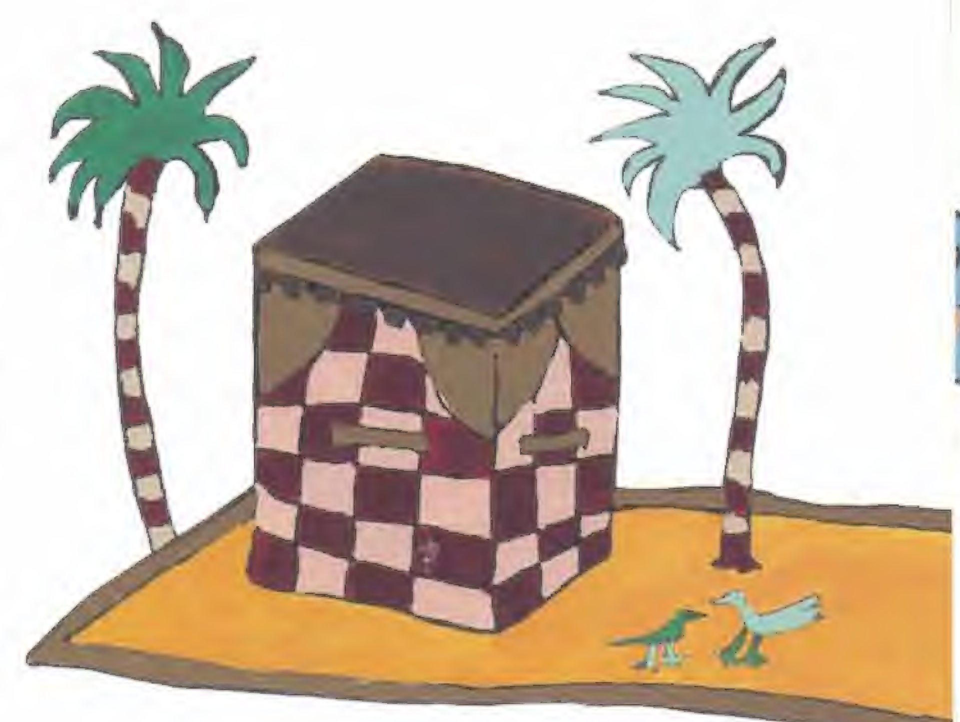
-يَا قَومُ . . يَا قَوْمُ . . مَا نَتيجَةُ هَذَا الخلاف؟ هَلْ يَجُوزُ الْقتالُ فى الْبَيْت الْحَرَام؟! حَكِّمُوا عُقُولَكُمْ وَاطْرُدُوا الشَّيْطَانَ منْ بَيْنكُمْ.

رَدُّوا علَيْه :

ـ هَلْ عِنْدكَ حَلٌّ نَرْضَى بِه ونُوافِقُ جَمِيعًا علَيْه؟

قَالَ لَهُمْ :

ـ مَا رأيكُمْ فى أنْ نَحْتكِمَ إلى أوَّلِ قَادمٍ علَيْنَا ، ونَقْبلَ حكْمهُ ونَنْزِلَ جَمِيعًا علَيْه؟



اسْتَحْسَنَ الجَمِيعُ الْفِكْرَةَ ووَافَقُوا علَيْـهَـا . وَهَدأت الأَصْـواتُ، وَسكَنَت النُّفُوسُ، وَسَادَ الصَّمْتُ، وَانْتَظَرَ الْجَـمِـيعُ أوَّلَ قَـادمٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ يَرْجُونَ أنْ يكُونَ عَادلاً وَحكِيمًا ، يَسْتَطِيعُ أنْ يَجِدَ الْحَلَّ الَّذى تَرْضَى به جَمِيعُ الْقَبَائِل .

انْتَظَرُوا وَانْتَظَرْتُ مَعَهُمْ، وَمَرَّ وَقْتٌ قَصِيرٌ، وَلَكنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىَّ طَوِيلاً . . طَوِيلاً . . ثُمَّ قَطَعَ السُّكُونَ صَوْت يقول :

ـ أرَى فَتًى قَادمًا منْ بَعِيد .

التفَتَ الْجَمِيعُ إلى الْجِهَةِ الَّتى أشَارَ إلَيْهَا صَاحِبُ الصَّوْتِ ، وَالْتَفَتُّ أنَا كَذلكَ . وكَانَ الفتى قد اقْتَرَبَ منَّا . وَعَرَفُوهُ، وَهَتَفَ الْبَعْضُ فى ارْتِيَاحٍ وَسُرُورٍ :

ـ إنَّهُ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله .

فَسَألَهُم صَاحِبُ الصَّوْتِ العَاقِلِ ، صَاحِبُ الفِكرةِ :

ـ هَلْ تَقْبَلُونَ حكْمَهُ؟

فَأَجَابُوا جَمِيعًا :

ـ نَعَمْ . . إنَّهُ الأمين .

قَالَ الرَّجُلُ بَعْدَ أنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ :

ـ يَا مُحَمَّدُ ! لَقَدْ أعدْنَا بناءَ الْكَعْبَةِ كَمَا تَعْرِفُ . وكُلُّ الْقَبَائِل جَمَعَتْ مِنَ الحجارَةِ واشْتَرَكَتْ فى الْبِنَاء . وبَقِى أنْ نَضعَ الْحَجَرَ الأسْوَدَ فى مكَانه : وهُنا اختَلَفنا . كُلُّ قبيلة تريدُ أن تَقُومَ بحمْلِه ووَضْعه ليكُونَ لها شَرَفُ ذَلِكَ . وأوْشكَ الْخِـلافُ بيْنَنَا أن يَنْقَلِبَ إلـى قِتَـال ونِزَال . وقَد اتَّفَقَ رأيُنا عَلَى أن تَحكُمَ بَيْنَنا . فَمَاذَا تَرَى؟

نَظَرَ مُحَمَّدٌ إلَىَّ أنَا الحَجَرَ الأسْوَدِ ، ثُمَّ نَظَرَ إلى الْقبائل المجْتَمعَة ، وفكَّرَ لَحْظَةً ، ثُمَّ قَامَ ونَزَعَ رِدَاءَهُ ، وفَرَشَهُ عَلَى الأرْض . ثُمَّ تَنَاولَنى بيديه الكريمتين ووَضَعَنى وسطَ ردَائه . ثُمَّ قَالَ لرُؤسَاء الْقَبَائل :

ـ تَعَالَوْا جَميعًا . . كُلٌّ منْكُم يُمْسكُ طَرَفًا منَ الرِّداءِ . وبذَلكَ تَنَالُونَ جَميعًا شَرَفَ حَمْلِ الْحَجَر الأسْوَدِ ووَضْعه فى مكَانه .

ذُهِلَ الجميع ! . . ذُهلُوا منْ رَوعَةِ الفكْرَة وبَسَاطَتها ، وعَجبوا وعَجبتُ مَعَهُمْ ، كيفَ لَم تَخطُرْ لواحد منهُم عَلَى بال ، وهُم شيوخُ القبائل وزُعماؤُها وحكماؤُها ! وارْتَاحُوا جميعًا إلى الفكرة الذكِيَّة الحكيمَة البَسيطَة الرَّائعة ، ورَضُوا بها ووَافَقُوا عَلَيْهَا .

وحَملَنى جَميعُ رُؤسَاء القَبَائل إلى مكَانى . وقد شَملَهُمُ الرِّضا والارْتِيَاحُ ، وغَمَرتْهُمُ الْبَهْجَةُ والسُّرُورُ ، وزَالَتْ منْ بَيْنهم الضَّغينَةُ والشَّحْنَاءُ ، وحَلَّ مَحلَّها الصَّفَاء والإخاءُ . فَلا حرْمَانَ لقبيلَة ولا امْتيَازَ لقبيلَة ، بَلْ اشْتَرَكتْ كُلُّ الْقَبائل فى حَمْلى ووَضْعى فى مكَانى ، واشْتَركتْ عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاة .

ومُنْذُ ذَلكَ الْيَوْم ، وأنَا فى مكَانى من الْكَعْبَـة ، يَرَانى أهْلُ مكَّة ، ويَرانى حُجَّاجُ بَيْت الله الْحَرام ، فَأذكِّرُهُم بحَادثَتى الَّتى تَشْهَدُ بحكْمَة مُحَمَّد ، وعَبْقَرِيَّة مُحَمَّد ، وعَظَمَة مُحَمَّد مُنْذُ أن كَانَ شَابًا فَتيًا .

أنا لَيْـلَةُ





غربت الشَّمسُ عَن الدُّنيا، وَحَلَّ الظَّلامُ، وَتَنَاثَرَت النُّجُومُ في السَّماء، وَلَمْ يَظْهَر القَمَرُ، لأنِّى لَيْلَةٌ مِنَ الليالى الأخيرة للشَّهْرِ العَرَبىِّ: «رمضان».

واسْتَقْبَلَنى النَّاسُ مِثلَ أىِّ ليلَة تَجِىءُ مكَّةَ وَتَمُرُّ عَلَى شِبْهِ جَزيرةِ العرب. فَسَهِرَ البعْضُ يسْمُرُ ويلْهُو، ونَامَ البعْضُ إلى أن يَطْلُعَ النَّهارُ.

والحقيقةُ أنَّ الدُّنيا مُنْذُ خُلِقَتْ كَانَتْ تَنْتَظِرُنى. لأنى لَيلَةٌ لى قَدْرى ولى ذكْرى ولى أثَرى! ولأنِّى لَيلَةٌ كلُّها نُور.. وهُو لَيْس نُوراً مِن الشَّمْس وَلا القَمَر وَلا مِن الكَهْرباء.. وَإنَّما هُوَ نُورُ الله، أضاءَ الأرْضَ وأضاءَ السَّماءَ.

وبفَضل هذَا النُّور، وبسبب ما حَدَثَ بَعْدَهُ.. أصْبَحْتُ أنَا خَيْراً مِنْ ألْف شَهر، خيراً مِنْ ثَلاثِينَ ألْفَ يَوْم، خَيْراً مِنْ سِتِّينَ ألْفَ نَهار ولَيل، خَيْراً مِنْ أكْثَرَ مِن ثلاث وثمانينَ سَنَةً!

أنَا لَيْلَة القَدْر..

جِئتُ فى شَهر رَمَضَانَ، سَنَةَ ٦١٠ مِيلادِيَّة، أىْ قَبلَ أنْ يَبْدَأ التَّاريخُ العَرَبىُّ الهِجْرىُّ بِنَحْو ثَلاثَةَ عَشَرَ عاماً.

وكَانَ خَارجَ مكَّةَ غَارٌ يُسَمَّى غَارَ حِراء. كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْد الله يَذْهَبُ إلَيْه كثيراً، ويُقِيمُ فيه طَويلاً، يُنَاجى ربَّهُ ويُصلِّى لَهُ ويَعْبُدهُ وَحْدَهُ.. بَيْنَما كَانَ أهْلُ قُرَيش يَعْبُدُونَ الأصْنَامَ.

وَعندَما جِئتُ، كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ بَلَغَ الأرْبَعِينَ مِنْ عُمْره. وكَانَ فى الغَار يَتعَبَّدُ ويَتَهجَّدُ، ويَدْعُو رَبَّهُ ويُنَاجيه ويُنَاديه ويَقُولُ لَهُ مَا مَعناهُ:

«يَا رَبَّ هَذَا الكَون، يَا خَالقَ هَذه السَّموات، يا خَالقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، يَا خَالقَ هَذه الأَرْضِ وَهَذه الجِبَال، يا ربى وَخَالقى، وخَالقَ الكائنات . . أريدُ وَجْهكَ . . أريدُ وَجْهكَ!».

وَبَينما هُوَ يُرَدِّدُ هَذا الدُّعاءَ، وَيكَرِّرُ هَذَا النِّدَاءَ، تَمْتَلئُ الدُّنْيَا بالنُّور . . نُور فى الأرض ونُور فى السَّماء . . وَيَنْزلُ مَلاكٌ منَ السَّماء بأرْوَعِ وَأجْمَلِ وَأعْظَم كلمات سَمعَتْها الدُّنيا. وَيَقُولُ هَذَا المَلاكُ، الَّذى هُوَ جبريلُ عَلَيْه السَّلامُ . . يَقُولُ لمُحَمَّد :

- اقْرأ .

فَيَرُدُّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلام :

- مَا أنَا بقَارئ .

فَلَمْ يكُنْ الرَّسُولُ يَعْرفُ الْقرَاءَةَ وَالْكتَابَةَ .

فَيَتَقَدَّمُ منْهُ جبريلُ، ويَضُمُّهُ إلى صَدْره ثلاث مَرَّات، وفى كُلِّ مَرَّة يَقُولُ لَهُ :

- اقْرأ .

وَيَرُدُّ مُحَمَّدٌ فى كُلِّ مَرَّة :

- مَا أنَا بقَارئ .

ثُمَّ أخَذَ جبريلُ يتلو عَلَى مُحَمَّد، وَمُحَمَّدٌ يُرَدِّدُ منْ بَعْده :

﴿ اقْرأ باسْم ربِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ منْ عَلَقٍ * اقْرأ وربُّكَ الأكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالقَلَم * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .



وانصرَفَ جبريلُ، وشعَرَ مُحمَّدٌ بالخوفِ، وأسْرَعَ إلى بيْتِه، ودَخلَ إلى زوْجتِه خديجةَ، وكانَ يرتَعشُ وعلى جبينه حبَّاتُ عَرَق. فأسْرعَتْ به إلى الفراش ووضعَتْ فوْقَهُ الغطاءَ.

وعندما بدأ مُحمَّدٌ ﷺ يدْفَأ ويهْدأ، حكى لزوْجته ما حدَث. وذكرَ لها كيفَ غمرَهُ النُّورُ رغْمَ الظَّلام فى غار حراء. وروَى لها كيفَ جاءَ جبريلُ وطلب منه أن يقرأ، وبماذا ردَّ عليه فى البدايَة، ثُمَّ كيفَ ردَّدَ وراءَه ما كان يتْلوهُ عليه. وتلاه مرَّةً أخرى عليها.

حاولَت السيدةُ خديجةُ أن تُطمْئنَ الرَّسُولَ عليه الصلاةُ والسلام، فقالت له:

- إنَّ الله مَعك، فأنتَ إنسانٌ طيِّبٌ كريم، تُحبُّ أهْلكَ ولا تكْذبُ على أحد، وتُساعدُ كُلَّ النَّاس وتُعطى الحقَّ لصاحبه. إنَّكَ كريمُ الأخلاق صادقٌ أمين.

ورَغبَت السيدةُ خديجةُ فى أن تَطْمئنَّ أكثرَ، فصحبَت الرَّسُول إلى ابن عمِّها ورقَةَ ابن نَوْفلَ. وكانَ شيخًا عاقلاً وحكيمًا، قرأ كُتُبًا كثيرةً وصاحبَ أهْلَ الإنجيل والتَّوراة، وعرَفَ كثيرًا منْ أمُور الدِّين. ولذلكَ كرِهَ الأصْنامَ ولمْ يعُدْ يعْبُدُها.

سمعَ ورقةُ بنُ نوفل من سيِّدنا مُحمَّد ما حدَثَ فى غار حراء، فقامَ منْ مكانه واحتضنَ سيِّدنا مُحمَّدًا وهو يقولُ له:

- إنَّ هذا وحىٌ نَزَلَ إليكَ. أنْتَ نَبىٌّ، نَبىُّ أمَّة العرَب، بل نَبىُّ الدُّنيا كلِّها. إنَّكَ مثْلُ موسى وعيسى اختارك اللهُ وأرْسلكَ لتهدىَ النَّاس إلى الخَير والحُبِّ والرَّحْمَة. والنَّاسُ لن يُصدِّقُوك فى أوَّل الأمر.. وسوْف يُخرجُونكَ منْ بلَدك. ولكنَّكَ فى النِّهاية سوْفَ تَنْتصرُ علَيْهم. بَعْدَ أنْ تُقاتلهم وتُحاربَهم.

كَمْ أتمنَّى أنْ يطولَ بى العُمْرُ، فأعيشَ حتَّى أدافعَ عنْكَ وعن رسالَتك.

هدأ سيِّدُنا مُحمَّدٌ تمامًا، وارتاحَ إلى كَلام ورقَةَ بن نَوْفلَ. وتمنَّى أن تأتى ليال كثيرةٌ مثلى. يسْمعُ فيها صَوْتَ الوَحْى ينزلُ عليه. وكان يخرُجُ إلى الجبَال وإلَى الغَار، وينتظرُ الوحْىَ فى شَوق كبير.

وتحقَّقَ لهُ ما تمنَّى، ولكنَّه حينَ عادَ إليه الوحْىُ، كانَ هذه المرةَ فى بيْته. فشَعرَ بنفسه يرتَعدُ ويرتَجفُ ويرتَعش. ونادى زوجتَهُ خديجةَ لكى تضعَ فوقَه الغطاءَ، قائلاً:

- دثِّرينى.. دثِّرينى (أى ضَعى الغطاءَ علَىَّ)!

فغطَّتْهُ السيدةُ خديجةُ فى فراشه. فسمعَ جبريلَ عليه السَّلامُ يقرأ عليه بصَوْت لا يَسْمَعُه أحَدٌ غيْرَهُ:

﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾.

ثُمَّ توالَى بعد ذلكَ نُزُولُ الوحى عَلَى النَّبىِّ ﷺ ونَزَلَ القُرآنُ الكريمُ آيات بَعْدَ آيات، وكانَتْ آخرُ آيَة نَزَلَتْ فيه:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾.

وسأبقَى أنَا أفْخرُ بأنَّ بدايةَ نُزول الوحْى.. نُزُول القُرآن.. كانَتْ فى ليْلتى أنا ليْلَة القدْر.

وقَدْ كرَّمنى اللهُ، وذكرَنى فى القُرآن وعظَّمَ قدْرى وشَأنى، وجعلَنى ليْلَةً مُباركَةً.

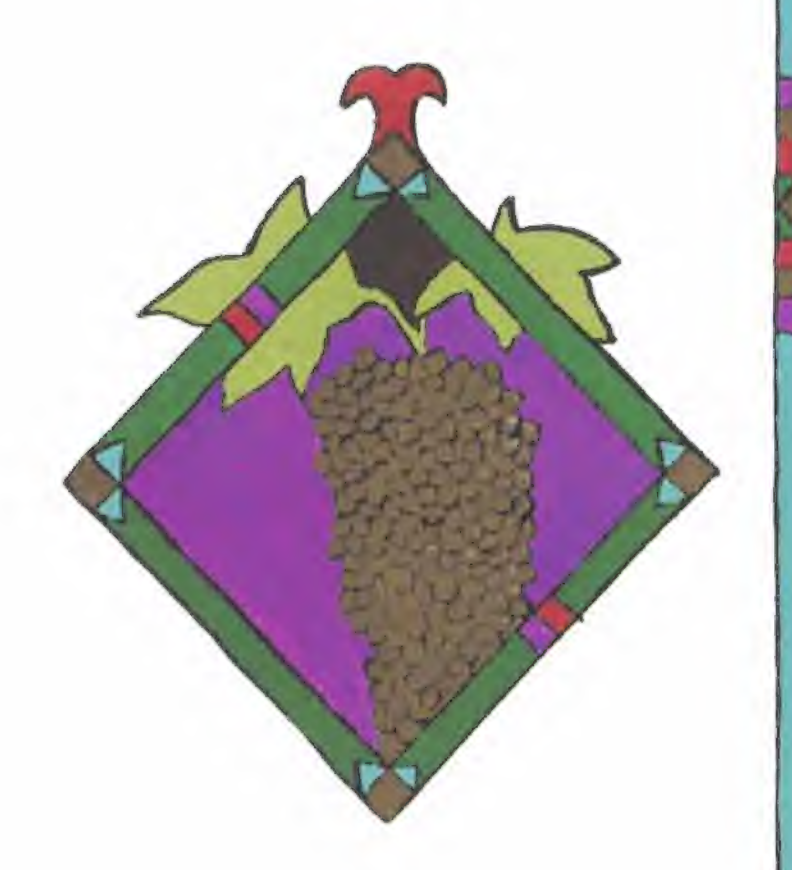
ومنْ هُنا.. ينْتظرُنى المسلمُونَ كلَّ عام فى أيَّام رمضانَ الأخيرة.. لأنَّهم يعْلَمُونَ أنَّ أبوابَ السَّماء تُفْتَحُ حينَ أصلُ، وأنَّ اللهَ يَستَجيبُ فى ليلتى كُلَّ دُعاء.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾.

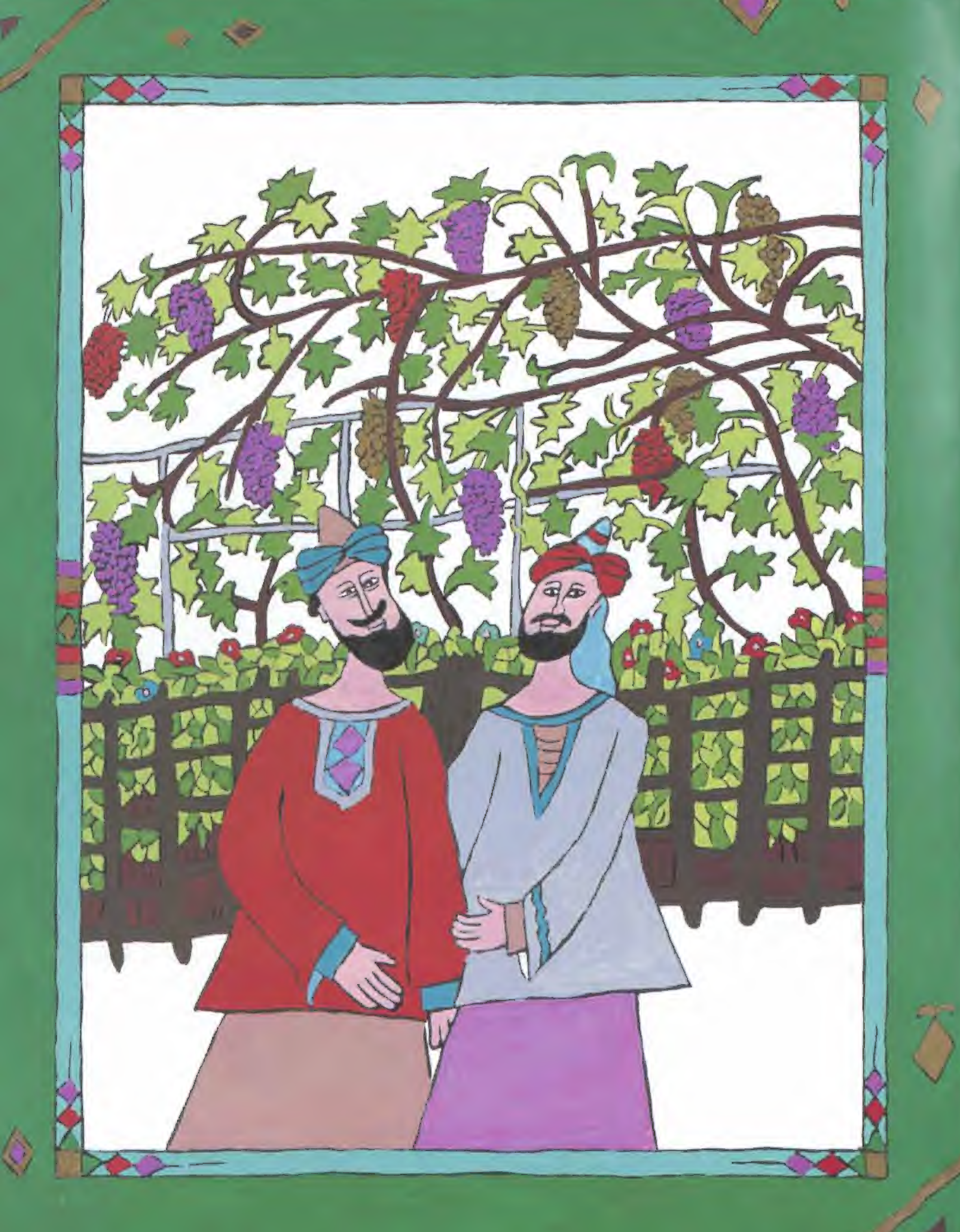
صدق الله العظيم





أنا عُنْقُودُ
عِنَبٍ





وكنت أتَدَلَّى مِنْ فَوْق كَرْمَتى بالطَّائف. وكَانَ يَمْلكُ كَرْمَتى رَجُلٌ اسمُه «عُتْبَةُ بنُ رَبيعَة» وأخوه «شَيْبَة». وَقَدْ رأيْتُ مِنْ مكَانى هذا مُحَمَّدًا رَسُولَ الله، وَقَدْ جَاءَ إلَى «بَنى ثَقيف» بالطَّائف، وَجَاءَ مُتَخَفيًا لا يَعْلَمُ به أحد. وكَانَ يُريدُ أنْ يَدْعُوَهُمْ إلَى الإسْلام. وكَانَ يَرْجُو أنْ تكُونَ «ثَقيفٌ» أقَلَّ تَعَصُّبًا وأكْثَرَ تَعَقُّلاً منْ قُرَيْش.

وَمُنْذُ ظَهَرتُ إلَى الوُجُود بُرْعُمًا صَغيرًا، تَتَكَوَّنُ حَبَّاتُه الْحُصْرُم، وأنا أسْمَعُ عَنْ مُحَمَّد منَ الَّذينَ يأتُونَ منْ مكَّةَ، وَيَسْتَظِلُّونَ بكرمَتى.

عَرفْتُ أنَّ أوَّلَ مَنْ آمَنَ بِه مِنَ النِّسَاء زَوْجَتُه خَديجَةُ، ومِنَ الرِّجال أبُو بكْر، وَمِنَ الأطْفَال عَلىُّ بنُ أبى طَالب.

ولكنِّى عَرفْتُ أنَّ الَّذينَ آمَنُوا به كَانُوا عَدَدًا قَليلاً، وأنَّ أغْلَبيَّةَ قُرَيْش لَمْ تُؤمنْ به، بَلْ سَخرَتْ مِنْهُ، وَقاوَمَتْهُ بكُلِّ سَبيل. وَقَدْ حاولَتْ إغْرَاءَهُ بالْمُلْك وَالْمَال، ليَعْدلَ عَنْ دَعْوَته، ويكُفَّ عَنْ تَسْفيه الأصْنَام الَّتى كانَتْ قُرَيْش تَعْبُدُها.

وَسَمعْتُ منْ جَالس تَحْتى أنَّهُمْ أرْسَلُوا إلَيْه مَعَ عَمِّه أبى طَالب قولَهم:

- إنَّ قُرَيْشًا تَعْرِضُ أنْ تأخُذَ منْهَا ما تُريدُ منَ الْمَال، عَلَى أنْ تَتْرُكَ هذَا الدِّينَ الَّذى تَدْعُو إليه.

فأجاب صَلَّى الله عَلَيْه وسلَّم:

«وَاللهِ يَا عَمِّى، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يمينى وَالْقَمَرَ فى يَسَارِى عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُه، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ دُونَه».

ثُمَّ سَمِعْتُ من «عُتْبَةَ» صَاحِبِ كَرْمَتى، أَنَّ قُرَيْشًا أَرْسَلَتْه أَيْضًا إلَى مُحَمَّدٍ لِيَقُولَ لَهُ:

- إنَّ قُرَيْشًا مُسْتَعِدَّةٌ إنْ كُنْتَ تُرِيدُ مَالا أَنْ تُعْطِيكَ حَتَّى تُصْبِحَ أَغْنَاهُمْ. وإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَرَفًا جَعَلُوكَ سَيِّدًا لَهُمْ لا يَفْعَلُونَ شَيْئًا إلا إذَا أَخَذُوا رأيكَ. وَإنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُصْبِحَ مَلِكًا جَعَلُوكَ مَلِكًا وأَجْلَسُوكَ عَلَى الْعَرْش. وَإِنْ كَانَ هذَا الْوَحْىُ مَرَضًا أتَوْا لكَ بِأَمْهَرِ الأَطِبَّاء لِعلاجِكَ حَتَّى تُشْفَى.

فَرَدَّ مُحَمَّدٌ على «عُتْبَةَ» يَتْلُو هذه الآيَةَ الكَرِيمَةَ:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾.



فَعَادَ عُتْبَةُ إلَى قُرَيْش يَقُولُ لَهَا:

- سَمِعْتُ كَلامًا لا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلاَ هُوَ بِالسِّحْرِ، وَلاَ هُوَ بِالْكَهَانَة.

وَطَلَبَ عُتْبَةُ إلَى قُرَيْشٍ أَنْ تَتْرُكَ مُحَمَّدًا وَشَأْنَه قَائلاً:

- لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلامًا حَدَثًا أَكْرَمَكُمْ خُلُقًا، وأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا، وأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً.. حَتَّى إذَا كَبِرَ وَجَاءَكُمْ بما جَاءَكُمْ قُلْتُمْ: كَاذِبٌ وَسَاحِرٌ؟!

لَمْ تَنْفَعْ إغْرَاءَاتُ قُرَيْشٍ لمُحَمَّدٍ بالمَالِ وَالْمُلْك. واسْتَمَرَّ يَدْعُو لدين الله الوَاحِدِ الأَحَدِ. فَزَادَتْ قُرَيشٌ مِنْ إيذَائِهَا لَهُ وَتَنْكِيلِهَا بِه وبِأَتْبَاعه.

وَدَعَتْ إِلَى مُقَاطَعَتِهِ وَعَزْلِهِ وَمُحَاصَرَتِهِ هُوَ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ. وَعَلَّقَتْ صَحِيفَةً مِنَ الْجِلْدِ فِى الْكَعْبَةِ تَدْعُو فِيهَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَتَقُولُ لَهُمْ:

❋ لا سَلامَ وَلا كَلامَ مَعَ الْمُسْلِمِين.

❋ لا بَيْعَ لَهُمْ وَلاَ شِرَاءَ مِنْهُم.

❋ لا زَوَاجَ وَلاَ مُصَاهَرَةَ.

❋ لا تَعَامُلَ مَعَهُمْ مِنْ أَىِّ لَوْنٍ.

وَلَمْ تَنْفَعْ هَذِهِ الْمُقَاطَعَةُ أَيْضًا. خَاصَّةً وَأَنَّ خَمْسَةً مِنْ كِبَارِ رِجَالِ قُرَيْشٍ أَعْلَنُوا بَعْدَ ثَلاثِ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمُقَاطَعَةِ، أَنَّهُمْ لا يَعْتَرِفُونَ بِهَا، وَمَزَّقُوا الصَّحِيفَةَ وَأَبْطَلُوا الْعَمَلَ بِهَا.

وَلَكِنَّ نِهَايَةَ الْمُقَاطَعَةِ، لَمْ تَصْرِفْ كُفَّارَ قُرَيْشٍ عَنِ اسْتِمْرَارِ التَّعْذِيبِ وَالإِيذَاءِ لِمُحَمَّدٍ وَأَتْبَاعِهِ. وَزَادَ التَّعْذِيبُ وَتَضَاعَفَ الإِيذَاءُ بَعْدَ مَوْتِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ وَزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ.

فَقَدْ أَلْقَوْا عَلَى الرَّسُولِ، وَهُوَ سَاجِدٌ فِى صَلاتِهِ، أَمْعَاءَ شَاةٍ مَذْبُوحَةٍ.. وَهُمْ يَضْحَكُونَ!

كَمَا وَضَعَ وَاحِدٌ مِنَ الْكُفَّارِ ثَوْبًا حَوْلَ عُنُقِهِ، وَكَادَ يَخْنُقُهُ.

كُنْتُ أَسْمَعُ هَذِهِ الأَخْبَارَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْقَادِمِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَهُمْ جَالِسُونَ تَحْتِى يَسْتَظِلُّونَ بِكَرْمَتِى.

كَانَتْ هَذِهِ الأَخْبَارُ الْحَزِينَةُ تُؤْلِمُنِى.. وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَجِدَ فُرْصَةً فِى حَيَاتِى الْقَصِيرَةِ أَرَى فِيهَا مُحَمَّدًا. وَلَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ يَطُولَ بِى الْعُمْرُ عَلَى كَرْمَتِى خَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْخُذَنِى الْكُفَّارُ وَيَعْصُرُونِى خَمْرًا تَأْخُذُ بِعُقُولِهِمْ، فَيَزِيدُوا فِى عَذَابِ الْمُسْلِمِينَ. لِذَلِكَ كُنْتُ أَتَصَوَّرُ فُرْصَتِى فِى لِقَاءِ مُحَمَّدٍ ضَعِيفَةً.
وَلَكِنَّ اللهَ حَقَّقَ أَمَلِى إِذْ جَاءَ بِنَفْسِهِ إِلَى هُنَا لأَرَاهُ.

وَبِقَدْرِ مَا سَعِدْتُ بِرُؤْيَتِهِ، حَزِنْتُ لِمَا حَدَثَ. وَكِدْتُ أَبْكِى وَأَنْزِفُ دَمْعِى حِينَ رَأَيْتُ مَا جَرَى لَهُ..

فَقَدْ جَلَسَ إِلَى أَشْرَافِ ثَقِيفٍ، يَعِظُهُمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَكِتَابِهِ، فَإِذَا هُمْ يَرُدُّونَهُ رَدًّا خَشِنًا، وَيُغْلِظُونَ لَهُ الْقَوْلَ.

وَفِى طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى مَكَّةَ طَارَدَهُ صِبْيَةٌ صِغَارٌ لا يَعْقِلُونَ، وَمَعَهُمْ بَعْضُ السُّفَهَاءِ، يُحِيطُونَ بِالرَّسُولِ، وَيَضْرِبُونَهُ بِقَسْوَةٍ، وَيَقْذِفُونَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَيَشْتُمُونَهُ، وَيَهْزَءُونَ بِهِ، وَيُمْسِكُونَ بِهِ كُلَّمَا حَاوَلَ الْجَرْىَ مُبْتَعِدًا عَنْهُمْ..

وَأَخِيرًا اسْتَطَاعَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْهُمْ وَأَنْ يَلْجَأَ إِلَى ظِلِّ الْكَرْمَةِ الَّتِى أَتَدَلَّى مِنْهَا، وَيَقْعُدَ تَحْتَهَا فِى تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ.. إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى، وَقِلَّةَ حِيلَتِى، وَهَوَانِى عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ». «اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىَّ فَلا أُبَالِى».

وَكَانَ عُتْبَةُ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ يَقِفَانِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ وَيَسْمَعَانِ كَلِمَاتِهِ، فَإِذَا «عُتْبَةُ» يَطْلُبُ مِنْ غُلامِهِ «عَدَّاس» أَنْ يَقْطِفَنِى مِنْ غُصْنِ الْكَرْمَةِ، وَيَضَعَنِى فِى طَبَقٍ وَيُقَدِّمَنِى إِلَى «مُحَمَّدٍ» ﷺ... شَعَرْتُ بِنَفْسِى أَهْتَزُّ فَرَحًا، فَوْقَ الْغُصْنِ الَّذِى أَنَا عَلَيْهِ، وَغَمَرَتْنِى السَّعَادَةُ وَأَنَا أَنْزِلُ مِنْ مَكَانِى، إِلَى الطَّبَقِ، لِيَضَعَنِى «عَدَّاس» أَمَامَ «مُحَمَّدٍ»، الَّذِى يَمُدُّ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ وَيَقُولُ: بِسْمِ اللهِ..

وَيُعْجَبُ «عَدَّاس» لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِى لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ قَبْلُ. فَيُبْدِى دَهْشَتَهُ لِلرَّسُولِ قَائِلا: هَذَا كَلامٌ لا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلادِ.

فَسَأَلَهُ الرَّسُولُ: وَمِنْ أَهْلِ أَىِّ بِلادِ اللهِ أَنْتَ؟

قَالَ عَدَّاس: مِنْ أَهْلِ «نِينَوَى».

وَرَدَّ الرَّسُول : مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِح «يُونُس بن مَتَّى».

فَسألُه عدَّاس : وَمَا يُدْرِيكَ مَنْ «يُونس بن متى»؟!

فأجَابَ الرَّسُول : كَانَ نَبِيًّا، وأنا نَبِيٌّ.

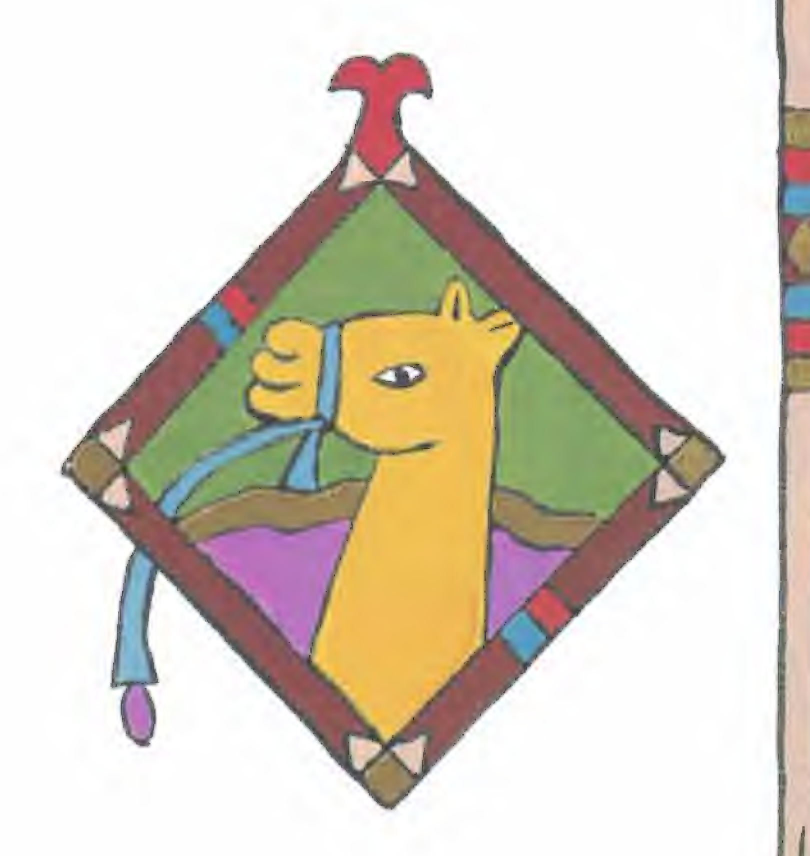
فانْحَنَى «عداس» على رأسِ «مُحَمد» وَيَده، وَهُوَ يُقَبِّلُه وَيَهْتِف :

- نَبِيٌّ .. نَعَمْ، نَبِي .. لا يُمْكِنُ أنْ يَحْتَمِلَ أحَدٌ مَا تَلَقَّى إلا فى سَبِيلِ الحَقِّ وَدِين الحَقِّ.

وانْفَرَطَتْ حبَّاتى بَيْنَ أصَابِعِ الرَّسُول عَليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَا أسْعَدُ عُنْقُود عنَب فى تَاريخ الدُّنْيَا كُلِّهَا .. فأنَا قَدْ صِرْتُ طَعَامًا للرَّسُول بَعْدَ طُول عَذَابه .. وَشَهِدْتُ إيمَانَ «عدَّاس» بـه وبِرِسَالَته السَّمَاوِيَّة العَظِيمَة.



أنا جَمَلٌ





ولكنى لَسْتُ جَمَلاً حقيقيًا . بَلْ أنا شَبَح . . شَبَحُ جَمَل . ظَهَرْتُ وَاخْتَفَيتُ . وكانَ لظُهُورى واختفائى حكَايَةٌ لَطيفَةٌ ، أحبُّ أنْ أرْويَها . وَمَا أكْثَرَ مَا رَوَت الْجمَالُ الْحَقيقيَّةُ عَنْ مُحَمَّد ﷺ .

فَقَدْ عَرَفَتْهُ هَذه الْجمَالُ وَهُوَ يَرْعَاها فى صغَره ، هى والْغَنَم . وَقَالَتْ إنَّهُ كَانَ كَريمًا مَعَها ، عَطُوفًا عَلَيْهَا ، رءُوفًا بها . وقَالَتْ إنَّهُ لَمْ يكُنْ يَتْرُكُهَا ليَلْعَبَ مثْلَ زُملائه ، بَلْ كَانَ يَظَلُّ إلى جوارهَا ، يُعْنَى بهَا ، وَيَدْفَعُ عَنْها شَرَّ الصَّحْرَاء .

وعرفَتْهُ هَذه الجمالُ أيْضًا راكبًا حنُونًا علَيْهَا . حملَتْهُ جنُوبًا إلى الْيمن وحملَتْهُ إلى الشَّام . . للتِّجارة .

وشَهدتْهُ فى الأسْواق فى مكَّةَ والْمدينَة وصنْعاءَ ودمشْقَ يَتَاجرُ ، يبيعُ ويشْتَرى . فَلَمْ تَر أكْثَر منْهُ أمانَةً وَشرَفًا . ولَمْ تَسْمَعْهُ مَرَّةً يَحْلفُ بأصْنَام قُرَيْش كَمَا كَانَ الْعَرَبُ يَحْلفُون .

وَحكَايَتى أنَا . . مُخْتَلفَةٌ تمامًا . . حكايَةٌ لَطيفَةٌ . . مُثيرَةٌ .

فذَاتَ يَوْم ، جاءَ تَاجرٌ غَريبٌ إلى مكَّةَ وَمَعَهُ جمالٌ يُريدُ أنْ يبيعَهَا . فَاشْتَرَاهَا منْهُ أبُو الْحكَم بْنُ هشَام ، الَّذى سَمَّاهُ المسْلمُونَ «أبا جَهْل» .

وَمثْلُ عَادَة الكُفَّار فى الْجَاهليَّة قَبْلَ الإسْلام ، أرَادَ أبُو جَهْل ألا يَدْفَعَ ثَمَنَ الْجمَال الَّتى اشْتَرَاهَا . أرَادَ أنْ يَأخُذَهَا بلا مُقَابل . فَتهَرَّبَ منْ صَاحبها ، وَصَمَّمَ عَلَى ألا يَدْفَعَ لَهُ ثَمَنَهَا .

رَاحَ التَّاجِرُ الْغَرِيبُ يَبْحَثُ فِى مَكَّةَ عَنْ رَجُلٍ يُوَسِّطُهُ عِنْدَ «أبى جَهْلٍ»، رَجُلٍ يَجْعَلُ أَبَا جَهْلٍ يَدْفَعُ ثَمَنَ الْجِمَالِ. وكَانَ التَّاجِرُ يَسْأَلُ كُلَّ مَنْ يُقَابِلُهُ عَنْ رَجُلٍ لَهُ شَخْصِيَّتُهُ وكَلِمَتُهُ الْمَسْمُوعَةُ، يَسْتَطِيعُ أن يَحْصُلَ لَهُ عَلَى حَقِّهِ.

وَفِى الطَّرِيقِ الْتَقَى التَّاجِرُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. وَقَصَّ عَلَيْهِمَا حِكَايَتَهُ مَعَ أبى جَهْلٍ. وَسَأَلَهُمَا عَنْ الشَّخْصِ الَّذِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْخُذَ لَهُ حَقَّهُ.

وَتَصَادَفَ أن كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَمُرُّ فِى الطَّرِيقِ فِى اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا. وكَانَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ قَدْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْىُ، وأَخَذَ يَدْعُو لِلإِسْلَامِ سِرّاً فِى مَكَّةَ؛ فَعَارَضَهُ الْكُفَّارُ وتَصَدَّوْا لَهُ وَهَزِئُوا بِهِ وَسَخِرُوا مِنْهُ وآذَوْهُ هُوَ وَمَنِ اتَّبَعُوهُ أَذًى شَدِيداً.

فَفَكَّرَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ فِى أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الرَّسُولِ، وَيَنْتَهِزَ الْفُرْصَةَ لِيَدْفَعَ بِهِ إلى أذى «أبى جَهْلٍ» أَعْدَى أَعْدَائِهِ، وأَشَدِّ كُفَّارِ قُرَيْشٍ اسْتِهْزَاءً بِهِ وَإِيذَاءً لَهُ هُوَ وَمَن اتَّبَعُوهُ. فَقَالَ هَذَا الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ الْغَرِيبِ:

اذْهَبْ إِلَى «مُحَمَّدٍ» هَذَا الَّذِى يَسِيرُ هُنَاكَ، وَسَوْفَ يَأْخُذُ لَكَ حَقَّكَ.

فَطِنَ الرَّجُلُ الثَّانِى إلى قَصْدِ صَاحِبِهِ، فَانْضَمَّ إِلَيْهِ وَقَالَ لِلتَّاجِرِ الْغَرِيبِ:

ـ نَعَمْ.. فَأَبُو الْحَكَمِ يُحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ كَثِيراً، وَيُكْرِمُهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ! فَأَسْرِعْ وَالْحَقْ بِمُحَمَّدٍ.. يَأْخُذْ لَكَ حَقَّكَ فِى الْحَالِ.

أَسْرَعَ التَّاجِرُ الْغَرِيبُ حَتَّى لَحِقَ بِمُحَمَّدٍ، وَرَوَى لَهُ قِصَّتَهُ، قَائِلاً:



ـ أَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ عَنْ هَذِهِ الْبِلَادِ. بِعْتُ بَعْضَ الْجِمَالِ لأبى الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ، وَلَمْ يَدْفَعْ لِى ثَمَنَهَا، ولا يُرِيدُ أن يَدْفَعَ. وَسَأَلْتُ عَنْ رَجُلٍ يُسَاعِدُنِى عَلَيْهِ، وَيَأْخُذُ لِى حَقِّى مِنْهُ. فَأَشَارُوا عَلَىَّ بِأَنْ أَلْجَأَ إِلَيْكَ. فَهَلْ تُسَاعِدُنِى وَتَأْخُذُ لِى حَقِّى مِنْهُ؟! أَرْجُوكَ وأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ!

أَخَذَ مُحَمَّدٌ بِذِرَاعِ التَّاجِرِ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى دَارِ أَبِى جَهْلٍ، وَالرَّجُلَانِ يَنْظُرَانِ، فِى دَهْشَةٍ، وَقَدْ عَلَتْ مِنْهُمَا الضَّحِكَاتُ، وسَارَا وَرَاءَ مُحَمَّدٍ وَالتَّاجِرِ الْغَرِيبِ. وَوَقَفَا مِنْ بَعِيدٍ يَنْتَظِرَانِ مَشْهَداً مُثِيراً مِنْ أَبِى جَهْلٍ ضِدَّ الرَّسُولِ، وَقَدْ سَعَى إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ عَلَى رِجْلَيْهِ، وَيُرِيدُ أَن يَتَجَرَّأَ عَلَيْهِ، وَيُطَالِبَهُ بِدَفْعِ ثَمَنِ الْجِمَالِ، وأَبُو جَهْلٍ قَدْ صَمَّمَ عَلَى أَلا يَدْفَعَهَا.

لَقَدْ وَقَعَ مُحَمَّدٌ فِى الشَّرَكِ الَّذِى نَصَبَهُ لَهُ الْكَافِرَانِ.

لَسَوْفَ تَشْهَدُ قُرَيْشٌ مَوْقِعَةً جَدِيدَةً. وَلَسَوْفَ يَفْتَرِسُ أَبُو جَهْلٍ مُحَمَّداً، وَيَجْعَلُ قُرَيْشاً كُلَّهَا تَضْحَكُ عَلَيْهِ وَتَسْخَرُ مِنْهُ!

زَادَ الرَّجُلَانِ مِنْ ضَحِكَاتِهِمَا، وَهَنَّأَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ عَلَى نَجَاحِ فِكْرَتِهِمَا، وانْتَظَرَا لِيَرَيَا كُلَّ هَذَا يَحْدُثُ لِمُحَمَّدٍ.

نَادَى مُحَمَّدٌ عَلَى أبى جَهْلٍ بَعْدَ أن طَرَقَ بَابَ دَارِه . فَرَدَّ هذا مِنْ وَرَاءِ البَابِ : مَنْ؟

فَأجَابَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : مُحَمَّد . اخْرُجْ إلَيَّ .

فَتَحَ أبُو جَهْلٍ الْبَابَ . وَخَرَجَ وَهُوَ يَنْوِى شَرًّا مُسْتَطِيرًا بِمُحَمَّد . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ فى هُدُوءٍ وَثَبَات : أعْطِ هذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ !

وَفَجْأةً ، ظَهَرَ أبُو جَهْلٍ كَمَا لَوْ كَانَ أبْصَرَ شَيْئًا أخَافَهُ . فَارْتَعَدَ وَاصْفَرَّ وَجْهُهُ ، وَتَلَعْثَمَتِ الْكَلِمَاتُ فى فَمِه ، وَأحْنَى رَأسَهُ إشَارَةً بِالطَّاعَة ، وَدَخَلَ إلى دَارِه .



دُهِشَ التَّاجِرُ الْغَرِيبُ . وَدُهِشَ أكْثَرَ الرَّجُلانِ اللَّذَانِ كَانَا يُرَاقِبَانِ عَنْ بُعْد . لَقَدْ تَوَقَّعَا أنْ يَثُورَ أبُو جَهْل ، وَيُمْسِكَ فَوْرًا بِمُحَمَّد وَيُوقِعَ بِه أذًى لَيْسَ بَعْدَهُ أذًى . وَلَكِنَّهُمَا عَادَا وَقَالا لأنفُسِهِمَا ، لَعَلَّهُ دَخَلَ الدَّارَ لِيَأتِىَ بِأدَاة تَعْذِيب . . عَصًا غَلِيظَة ، أوْ سَوْط أوْ صَخْرَة . . بَلْ سِيخ مُحْمًى بِالنَّار . . فَلَيْسَ إلا السِّيخَ الْمُحْمَى بِالنَّارِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مُحَمَّدٌ عَلَى تَجَرُّئِه هذَا !

وَانْتَظَرُوا أبَا جَهْلٍ لِيَعُودَ . . بالسِّيخِ الْمُحْمَى بِالنَّار .

وعَادَ أبُو جَهْلٍ . . عَادَ سَرِيعًا ، ومَعَهُ شَيءٌ آخَرُ تَمَامًا . . عَادَ ومَعَهُ الْمَالُ حَقُّ التَّاجِرِ عَنِ الْجِمَالِ .

ضَرَبَ الرَّجُلانِ كَفًا بِكَفٍّ .

ولَمْ يُصَدِّقِ التَّاجِرُ الْغَرِيبُ عَيْنَيْهِ ، وهُوَ يَقْبِضُ حَقَّهُ بِهذهِ السُّهُولَةِ وهذهِ السُّرْعَةِ الْعَجِيبَةِ .

وسَأَلَهُ مُحَمَّدٌ : هَلْ هذَا كُلُّ حَقِّكَ ؟

فَأَجَابَهُ : نَعَمْ . . هذَا حَقِّي بِالْكَامِلِ .

وانْصَرَفَ مُحَمَّدٌ دُونَ أنْ يَنْتَظِرَ كَلِمَةَ شُكْرٍ أوْ تَقْدِيرٍ مِنَ التَّاجِرِ الْغَرِيبِ . وأسْرَعَ الرَّجُلانِ لِيَتَأكَّدَا ، فَهُمَا مَذْهُولانِ ، وهُمَا عَاجِزَانِ عَنْ فَهْمِ مَا جَرَى . عَدَّ لَهُمَا التَّاجِرُ النُّقُودَ وقَالَ لَهُمَا :

ـ شُكْرًا لِهذَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ مُحَمَّدٍ . . مَا كُنْتُ أتَصَوَّرُ أنَّهُ يَحْصُلُ لِي عَلَى حَقِّي بِالْكَامِلِ ، بِهذهِ السُّهُولَةِ وهذهِ السُّرْعَةِ الْعَجِيبَةِ !

انْدَفَعَ الرَّجُلانِ يُخْبِرَانِ قُرَيْشًا بِمَا حَدَثَ ، ويَرْوِيَانِ لَهَا مَا رَأيَاهُ بِأعْيُنِهِمَا مِنْ جُبْنِ أبِي جَهْلٍ وتَخَاذُلِهِ أمَامَ مُحَمَّدٍ . ذُهِلَتْ قُرَيْشٌ ، وأسْرَعَ كُبَرَاؤُهَا إلَى أبِي جَهْلٍ يَطْرُقُونَ بَابَهُ ، لِيَعْرِفُوا مِنْهُ حَقِيقَةَ مَا حَدَثَ . كَيْفَ يُطِيعُ مُحَمَّدًا ، ويَسْتَسْلِمُ لَهُ ، ويَخَافُ مِنْهُ ويَدْفَعُ حَقَّ التَّاجِرِ فِي الْحَالِ ، وهُوَ الَّذِي كَانَ مُصَمِّمًا عَلَى ألا يَدْفَعَهُ ؟ !

وكَانَتْ مُفَاجَأةً أُخْرَى لَهُمْ ، أنَّ أبَا جَهْلٍ كَانَ خَائِفًا أنْ يَفْتَحَ الْبَابَ . وبِصُعُوبَةٍ فَتَحَ بَعْدَ أنْ عَرَفَ أنَّهُمْ هُمْ . ورَدَّ عَلَى أسْئِلَتِهِمُ الْغَاضِبَةِ الْكَثِيرَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ :

ـ فَتَحْتُ الْبَابَ ، وكُنْتُ أنْوِي بِمُحَمَّدٍ كُلَّ شَرٍّ ، بَعْدَ أنْ تَجَرأ وأتَى مَعَ هذَا التَّاجِرِ لِيَطْلُبَ لَهُ حَقَّهُ . ولَكِنِّي فَجْأةً رَأيْتُ كَأنَّ جَمَلا ضَخْمًا يُطِلُّ عَلَيَّ مِنْ فَوْقِ رَأسِ مُحَمَّدٍ ، فَاتِحًا فَمَهُ ، كَاشِفًا عَنْ أنْيَابِهِ ، ويُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ عَلَيَّ إذَا أنَا وَقَفْتُ أُنَاقِشُ أوْ أُعَارِضُ .

فَرَأيْتُ أنْ أنْصَرِفَ قَبْلَ أنْ يَنْقَضَّ عَلَيَّ هذَا الْجَمَلُ الْمُخِيفُ . وفِي دُخُولِي الدَّارَ أحْسَسْتُ كَأنَّهُ يُتَابِعُنِي

ويُطَارِدُنِي . ثُمَّ أحْسَسْتُ بِأنَّهُ سَيَنْقَضُّ عَلَيَّ إذَا لَمْ أُسْرِعْ وآخُذِ النُّقُودَ وأدْفَعْ لِلتَّاجِرِ حَقَّهُ بِالْكَامِلِ . فَفَعَلْتُ ذلِكَ ثُمَّ قَفَلْتُ الْبَابَ ودَخَلْتُ إلَى الدَّارِ .

فَرَدَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ : طَبْعًا . . حَتَّى لا يُطَارِدَكَ الْجَمَلُ مَرَّةً أُخْرَى !

ورَدَّ آخَرُ : ولَعَلَّكَ لَمْ تَفْتَحْ لَنَا . . خَوْفًا مِنْ أنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ هُوَ الطَّارِقَ مَرَّةً أُخْرَى !

وأضَافَ ثَالِثٌ : والْجَمَلُ الضَّخْمُ يُطِلُّ مِنْ فَوْقِ رَأسِهِ . . ويُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ عَلَيْكَ !

وتَعَالَتِ الضِّحْكَاتُ . . وتَتَابَعَتِ السُّخْرِيَةُ .

وأكَّدَ الرَّجُلانِ : لَقَدْ كُنَّا نُشَاهِدُ مَا حَدَثَ . ولَمْ يَكُنْ مَعَ مُحَمَّدٍ أوْ فَوْقَ رَأسِهِ جَمَلٌ ولا شَيْءٌ ! .

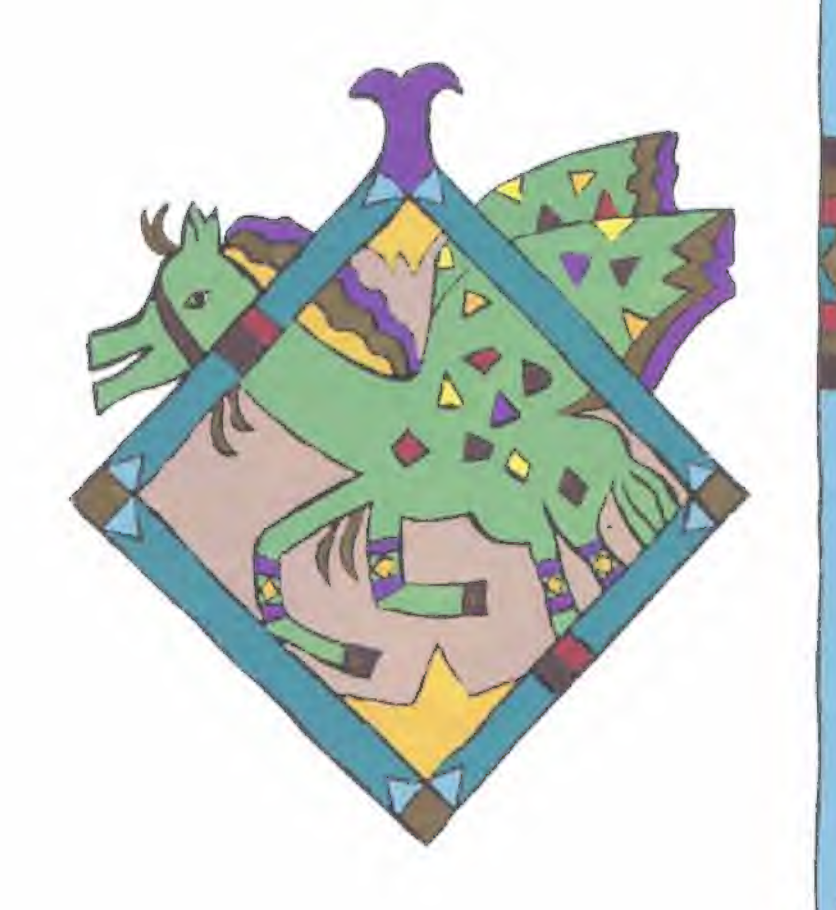
وأكْمَلَ الآخَرُونَ :

ـ لَقَدْ أرْعَبَتْكَ شَخْصِيَّةُ مُحَمَّدٍ وشَجَاعَتُهُ . وأفْزَعَكَ إقْدَامُهُ وثَبَاتُهُ فِي طَلَبِ الْحَقِّ . وخَيَّلَ لَكَ الرُّعْبُ والْفَزَعُ شَبَحَ هذَا الْجَمَلِ . ويَبْدُو أنَّكَ لا تَزَالُ تَخَافُ مِنْ عَوْدَتِهِ ! !

وضَحِكَتْ قُرَيْشٌ كَثِيرًا مِنْ أبِي جَهْلٍ . . بَدَلَ أنْ تَضْحَكَ مِنْ مُحَمَّدٍ . وسَخِرَتْ مِنْ زَعِيمِهَا الْخَائِفِ الْمُرْتَعِشِ . . وكَانَ الْكَافِرَانِ يُرِيدَانِ لَهَا أنْ تَسْخَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ .



أنا البُراقُ







قَبلَ الصَّواريخ، وقَبْلَ الأقْمار الصِّناعيَّة بأكْثَرَ منْ ألْف وثَلثمائة سَنَة، كُنْتُ أنا . . الْبُراق!

اخْتَلَفَت الرِّوَايَاتُ فى وَصْفى وتَحْديد شكْلى ونَوْعى. والْمُهمُّ أنَّنى منْ صُنْع الله، خالق الأرْض والسَّموات، سُبْحانَهُ إنَّهُ عَلى كُلِّ شَىء قَدير.

ركبَنى الأنْبياءُ عَلَيْهم السَّلام. ولَكنَّ لى مَعَ مُحَمَّد عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُعْجزَةً فَريدَةً، وقصةً كُلُّها حقيقَةٌ . . وإنْ كَانَتْ أغْرَبَ منَ الْخَيال.

كَانَتْ اثْنَتا عَشْرَةَ سَنَةً قَدْ مَضَتْ مُنْذُ نَزل الْوَحْىُ عَلى مُحَمَّد. ولَقىَ فى هَذه السَّنوات الْكَثيرَ منَ الْعَذَاب. وتُوُفِّى عَمُّهُ، وتُوفِّيَت زَوْجَتُه، وهَاجَرَ أصْحابُهُ، ولَمْ تَنْجحْ رحْلَتُهُ إلى «الطَّائف» ولَكنَّهُ ظَلَّ عَلى إيمانه، يَسْألُ اللهَ الْعَوْنَ والصَّبْرَ.

بَعْدَ هَذه السَّنوات منَ الأحْداث، حَدَثَتْ مُعْجزَتى مَعَ الرَّسُول، حَدَثَتْ رحْلَةُ الإسْراء والْمعْراج، وكَانَتْ اللَّيْلَةُ . . لَيْلَةَ ٢٧ منْ رَجَب.

وفيهَا ذَهَبَ جبْريلُ إلى دَار الرَّسُول، وأتى به إلى الْبَيْت الْحَرام حَيْثُ كُنْتُ أنْتَظرُ. وبَعْدَ أنْ غَسَلَ جبْريلُ قَلْبَ الرَّسُول منْ مَاء زَمْزَم، مَلأ قَلْبَهُ بالْحكْمَة والإيمَان. ثُمَّ ركبَنى الرَّسُولُ وانْطَلَقْنا، وفى صُحْبَتنا جبْريلُ، إلى بَيْت الْمَقْدس فى سُرْعة خاطفَة.

وخارجَ مكَّةَ، مَرَرْنا بقَافلَة لقُرَيْش، ضَلَّت نَاقَةٌ لَهَا، فأرْشَدَهُمْ الرَّسُولُ إلى مكانها. ومَرَرْنا

بِقَافِلَةٍ أُخْرَى نَفَرَتْ جِمَالُها وكُسِرتْ سَاقُ جَمَلٍ مِنْهـا . وَمَرَرْنا بِقَافِلَةٍ ثَالِثَةٍ فى مُقَدِّمَتِها جَمَلٌ فَوْقَهُ كِيسَانِ أَسْوَدَان .

وفى الطَّرِيقِ رأى مُحَمَّدٌ ﷺ الكَثِيرَ . وكَانَ يسْأَلُ وَجِبْرِيلُ عَليه السَّلامُ يُجِيبُ .

رأى فَتَاةً جَمِيلَةً فى ثِيابٍ فاخِرَةٍ ، نَادَتْ : يَا مُحَمَّدُ . فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا . وَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : هَذه هِىَ الدُّنْيا ، زُيِّنَتْ لك .

فَقَالَ الرَّسُول : لا حَاجَةَ لى فى الدُّنْيا .

وَعِندَمـا وَصَلْنا إلى «يَثْـرِب» قَـالَ جِبْرِيلُ : هَذه يَثْرِبُ سَتُهَاجِرُ إِلَيـها ، وَتُسَمَّى المدِينَـةَ الْمُنَـوَّرَةَ ، وَيَتَـوَفَّاكَ اللهُ فيها .

وَمَـــرَرْنَا عَلى قَـــوْمٍ يَزْرَعُـــون وَيَحصُدُون . وبَعْدَ الْحَصَادِ يَعُودُ الزَّرْعُ كما كَانَ . فَسأَلَ الرَّسُولُ جِبْرِيلَ : مَا هَذَا؟

قَالَ جِبْرِيل : هَؤُلاء هُم الْمُجَاهِدُونَ فى سَبيلِ الله ، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ إلى سَبْعمائَةِ ضِعْف .

رأَيْنا مَناظِرَ لِعذَابِ تارِكى الصَّلاة والزَّكاة .

وَهَبَّتْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ تَحْمِلُ رائحَةً كَالْعطرِ ، وسَمعْنا صَوْتًا ، فسأَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟

فأجاب جِبريلُ : هذا صَوْتُ الْجَنَّةِ تقُولُ : «رَبِّ آتنى ما وَعدْتَنى ، فقدْ كثُرَتْ غُرَفى وحَرِيرى ، وذَهَبى وفِضَّتى ، وأكْوابى وأبارِيقى وعَسَلى ولَبَنى ومائى . . آتِنى يا ربِّ ما وعدْتَنى به» . .

وفى وادٍ آخَـر ، شَـمَمْنا رائحـةً كَرِيهَـةً ، وسَمِعْنا صَوْتًا مُنْكَرًا .

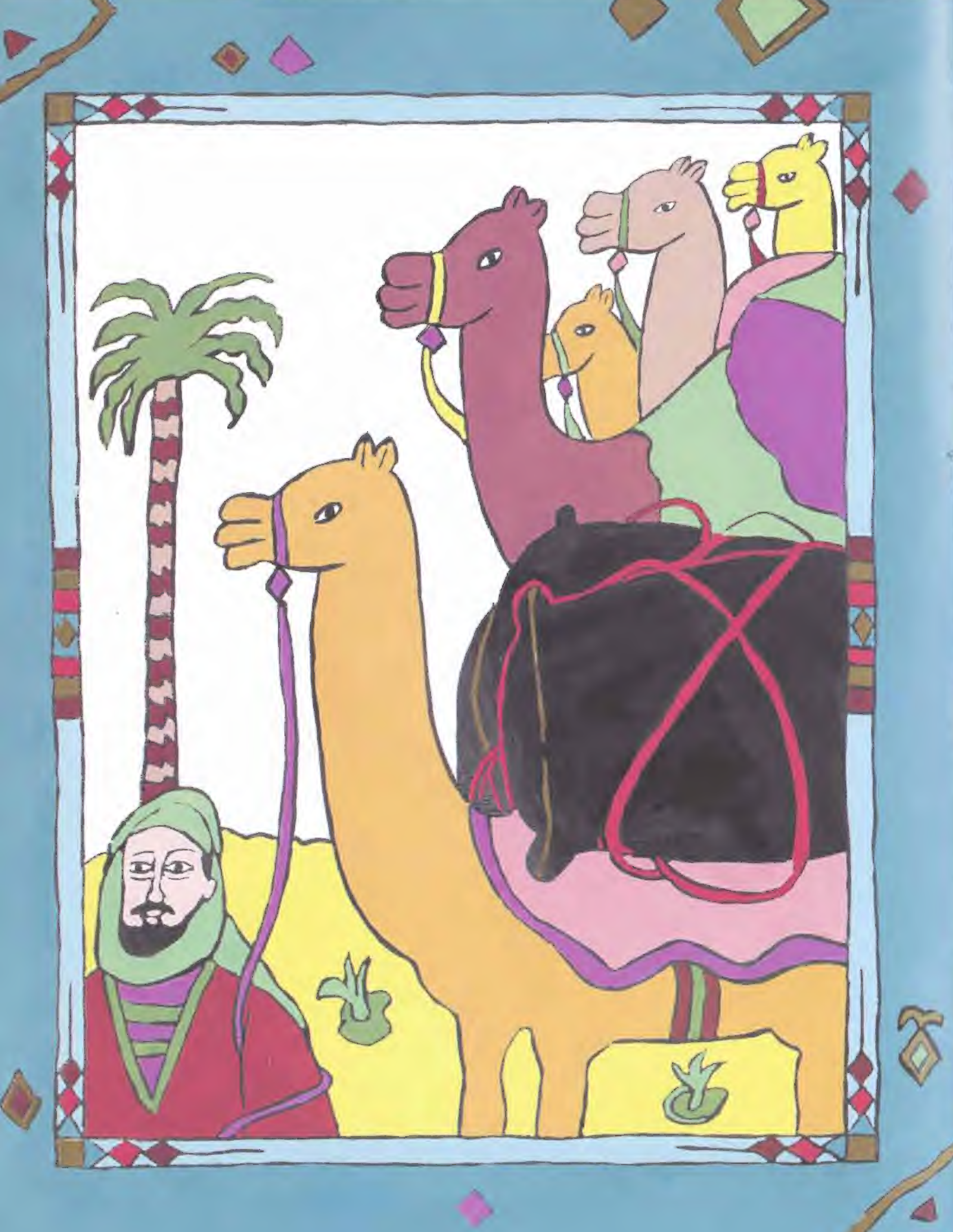
وسأل الرسولُ ﷺ : ما هذا يا جبريلُ؟

فأجَابَ جِبْرِيل : هَذَا صَوْتُ جَهَنَّم تُنادى : «رَبِّ آتنى مَا وَعَدْتَنى . فَقَدْ كَثُرَتْ سَلاسلى وأغْلالى ، وَاشْتَدَّ حَرِّى . فَآتنى مَا وَعَدْتَنى» .

وَوَصَلْنَا «الْقُدْسَ» فى لَمْحِ الْبَصَرِ . وأمْسكَ مُحَمَّدٌ ﷺ بى - أنا البُرَاق - وَرَبطَنى فى حَلْقَة صَخْرَةٍ عَالِيَة ، مَا زَالَتْ قَائمَةً إلى يومكُمْ هذَا ، وَقَدْ بَنى الْمُسْلِمُونَ فَوْقَها قُبَّةً عَاليَةً . وَتَرَكَنى فى مكانى وَدَخَلَ المَسْجِدَ الأقْصَى .

وكَانَ الأنْبِيَاءُ والرُّسُلُ يَنْتَظِرُونَهُ فيه . فَصَلَّى بِهم إمامًا لَهُمْ وَهُمْ صُفُوفٌ منْ خَلْفه .

وَبَعْدَ الصَّلاة ، قَدَّمَ جِبْرِيلُ للرَّسُول «مِعْراجًا» يَصْعَدُ فيه إلى السَّماء . . فى رِحْلَة ثانية سُمِّيت الْمعْراج .



وقَدْ صعَدَ الرَّسُولُ إلى السَّمَاءِ الأولى، وكانَ فيها أبُونَا آدَمُ الَّذى رَحَّبَ بالرَّسُولِ. وفى السَّماءِ الثَّانية، قَابَلَ سَيِّدَنا عيسى بْنَ مَرْيَمَ، ويَحْيَى، وزكَرِيَّا، عَلَيْهِمُ السَّلامُ. وفى السَّماءِ الثَّالثَة قابَل سيِّدَنا يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلامُ. وفى السَّماءِ الرَّابعة قَابَل سَيِّدَنا إدْرِيسَ. وفى السَّماءِ الْخَامسَة قَابَلَ سَيِّدَنا هَارُونَ بْنَ عِمْرانَ. وفى السَّماءِ السَّادسَة قَابَلَ سَيِّدَنا مُوسى بْنَ عِمْرَانَ. وفى السَّماءِ السَّابعَة قَابَلَ سَيِّدَنا إبْرَاهيمَ الْخَليل. وكَانَ كُلٌّ منهم يَسْتَقْبِلُ النَّبىَّ مُرَحِّبًا قَائلاً:

مَرْحَبًا بالنَّبىِّ الصَّالِحِ والأخِ الصَّالِح.

ثُمَّ رَفَعَ اللهُ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى إلى «سدْرَة الْمُنْتَهى».. إلى الْحَضْرَةِ الإلَهِيَّة الْعَلِيَّة. فَسَجَدَ الرَّسُولُ لله الْوَاحد حَمْدًا وَشُكْرًا، لأنَّهُ أوْصَلَهُ إلى مكان لَمْ يَصِلْ إلَيه أحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ غَيْرُهُ.

وَهُنا شَرَعَ اللهُ الصَّلاةَ على الْمُسلمين، خَمْسَ صَلَوات فى الْيَوْم، وَتَكُونُ الْكَعْبَةُ قِبْلَتَهُمْ فيها، فَيَتَّجِهُونَ إلَيْهَا فى صَلاتِهِمْ.

وبَعْدَ ذَلكَ نَزَلَ النَّبىُّ إلى الصَّخْرَة الشَّرِيفَة. وَوَدَّعَ الأنْبِيَاءَ والْمُرْسَلينَ.

ثُمَّ ركِبَنى ـ أنا الْبُرَاق ـ مَرَّةً أخْرَى، عَائدًا إلى الْبَيْت الْحَرَامِ، وتَمت بذَلكَ رحْلَةُ الإسْرَاء والْمعْرَاج. وَدَّعْتُهُ، وَذَهبَ إلى بَيْته. وفى الْيَوم التَّالى ذَهَبَ إلى الْكَعْبَة. وقَصَّ عَلى النَّاس قصَّةَ رحْلَته.. قصَّةَ الإسْرَاء وَالْمعْرَاج. فَلَمْ يُصَدِّقْهُ كُفَّارُ قُرَيش، وكَانَ أبو جَهل أكْثَرَهُمْ تكْذيبًا لَهُ. وقَالَ واحدٌ منْهُم:

- إنَّنَا نَذْهَبُ إلى الْقُدْسِ فى شَهْرٍ كَامِلٍ، ونَعُودُ فى شَهْرٍ كَامِلٍ، فكَيْفَ يَذْهَبُ مُحَمَّدٌ ويَعُودُ فى لَيْلَةٍ واحدةٍ؟!

وفى هَذه اللَّحْظَة وَصَلَ أبو بَكْرٍ إلى الْكَعْبَة، وَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَ الرَّسُول . . وَسَمِعَ مِنَ الْكُفَّار مَا قَالَهُ الرَّسُولُ عَنْ رِحْلَتِه، وَسَمِعَ مِنْهُمْ تَكْذِيبَهُمْ وَعَدَمَ تَصْدِيقِهِم لَهُ.

وكَانَ الْجِدَالُ مُسْتَمِرًا بَيْنَ الْكُفَّار وبَيْنَ الرَّسُول. وتَحَدَّوْهُ في النِّهَايَة أنْ يَصِفَ لَهُم الْمَسْجِدَ الأقْصَى، وَهُمْ يَعْرِفُونَ أنَّهُ لَمْ يَزُرْهُ مِنْ قَبْلُ ولَمْ يَذْهَبْ إليه أبَدًا. فَبَدأ مُحَمَّدٌ الْوَصْفُ، وكأنَّ الْمَسْجِدَ الأقْصَى أمامهُ يَرَاهُ ويَنْظُرُ إليه. ووَصَفَهُ جُزْءًا جُزْءًا بِدِقَّة أذْهَلَت الْجَمِيعَ، وهَتَفَ أبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ يَا رَسُولَ الله.

ثم زِيَادَةً على الْوَصْفِ الدَّقِيق، أضَافَ لَهُمُ الرَّسُولُ إثْبَاتَاتٍ أخْرَى. فَحَدَّثَهُم عَنِ الْقَوَافِل الَّتى رَآها عِنْدَ مَشَارِفِ مكَّةَ. وَبَعْدَ قليلٍ مِنَ الْوَقْت عَادَت هَذه الْقَوافِلُ وَوَصَلَتْ مكَّةَ. وَعَادَتْ مَعَهَا النَّاقَةُ الَّتى كَانَتْ ضَلَّتْ الطَّرِيقَ والجملُ الْمَكْسُور السَّاق، والْجملُ الَّذى يَحْمِلُ كِيسَيْنِ أسْوَدَيْنِ . . تمامًا كما أخْبَرَهُم الرَّسُولُ.

ذهلَ الكُفَّارُ ولَمْ يَجِدُوا ما يقولونَهُ وارْتَفَع صَوْت أبى بكرٍ يُرَدِّدُ:

- صَدَقْتَ يَا رَسُولَ الله. وَصَدَّقْتُ كُلَّ مَا قُلْتَ.

فَقَالَ لَهُ النَّبىُّ الْكَرِيمُ : أنْتَ الصِّدِّيقُ . . يَا أبا بَكْرٍ.

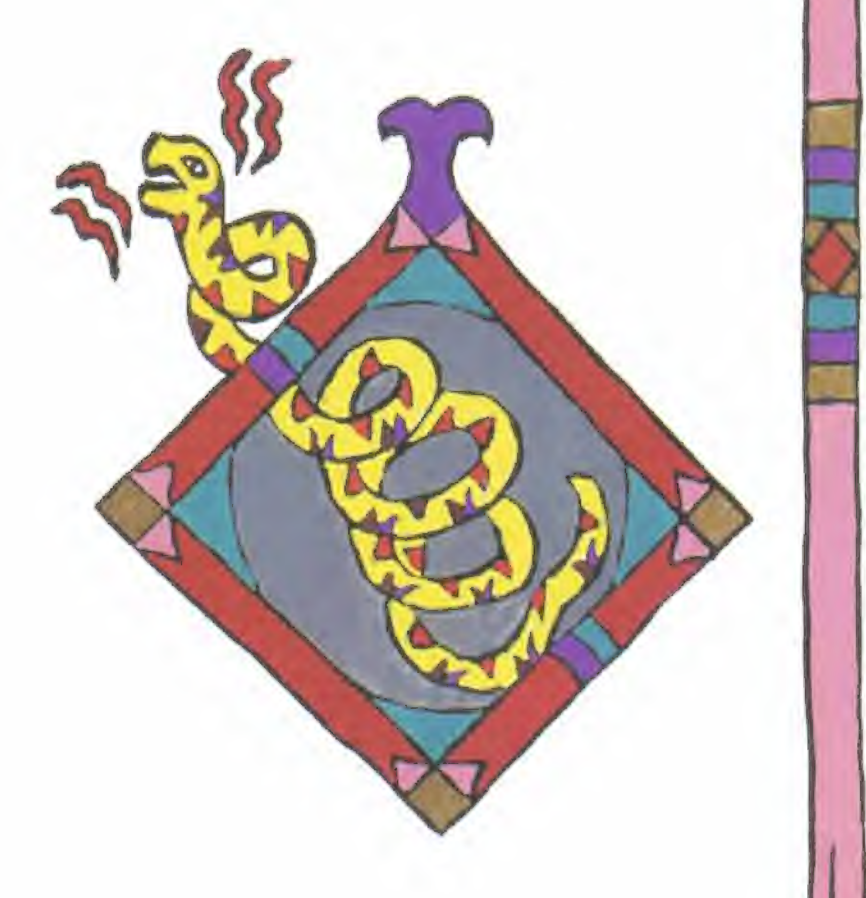
ومُنْذُ ذَلكَ الْيَوْمِ، يُلَقَّبُ أبُو بكرٍ بِلَقَبِ الصِّدِّيق.

هَذه هِيَ حِكَايَتِى - أنا الْبُرَاق - مَعَ رَسُولِ الله فى لَيْلَةِ الإسْرَاءِ والمِعْرَاج. حِكَايَةٌ صَادِقَةٌ حقيقيَّةٌ. سَبَقَتْ عَصْرَ الصَّوَارِيخِ والأقْمَارِ الصِّنَاعيَّة بأكْثَرَ مِنْ ألْف وثَلثمائة عَام.

﴿ سُبْحَانَ الَّذى أسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ المسْجِدِ الْحَرَامِ إلى المسْجِدِ الأقْصَى الَّذى بَارَكنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتنا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

صدق الله العظيم






أَنا ثُعْبانٌ





وأَعْرِفُ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: أَعُوذُ بالله . . .

اطْمَئِنُّوا . . أَنَا بَعيد. فَقَدْ عِشْتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيد، قَدِيم . . وكان بيتى عبارة عن شقٍّ فى جِدَار دَار فى مَدينة مكّةَ اسْمُهَا «دَارُ النَّدْوَة»، يَجْتَمِعُ فيها النَّاسُ وَيَتَحَدَّثُونَ فى كُلِّ أُمُورِهِمْ . . وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِى يَوْمًا لأجِدَ أَمَامى رَجُلاً يَلْبَسُ مَلابِسَ سَوْدَاءَ، وَعِنْدَمَا رأيْتُهُ عَرَفْتُهُ. قُلْتُ لَهُ:

ـ أَنْتَ الشَّيْطانُ إبْليسُ.

قَالَ لى: اسْكُتْ، لا أريدُ أنْ يَسْمَعَكَ أحَدٌ.

سألْتُهُ: لِمَاذَا أنْتَ هُنَا؟

أجَابَ: أريدُ مُحَمَّدًا. أريدُ أنْ أتَخَلَّصَ مِنْهُ. هَذَا الرَّجُلُ سَيُغَيِّرُ الدُّنيا كُلَّهَا. يَخْرُجُ مِنْ قَلْبِه نُورٌ يُعْمِى عُيُونَ الشَّيَاطِينِ كُلِّها. هَلْ تَسْتَطِيعُ يَا ثُعْبَانُ أنْ تُسَاعِدَنى؟

نَظَرْتُ إلَيْه طَويلاً دُونَ أنْ أقُولَ كَلِمَةً . . لَقَدْ سَاعَدْتُهُ مِنْ قَبْلُ لِكَى يَنْجَحَ فى تَنْفيذ بَعْضِ جَرائمه. وَمُنْذُ أزْمانٍ بَعيدَة وَالنَّاسُ يَكْرَهُونَنى، بَلْ يَهْرُبُونَ جَرْيًا مِنِّى، وَمِنْ أذَاىَ الشَّديد. وكَانَ بِوُدِّى أنْ أُكَفِّرَ عَنْ أخْطَائى وأُصْلِحَ مِنْها، وأنْ أُبْعِدَ إبْليسَ عَنْ مُحَمَّد، لِذَلكَ كُنْتُ أرْغَبُ فى أنْ يَبْتَعد عَنْهُ. ولَكنِّى سَمِعْتُ صَوتَ جَمَاعَة قَادِمينَ يَتَحَدَّثُونَ، فأسْرَعْتُ إلى بَيْتى لأخْتَفِى فيه. وجَلَسَ هَؤُلاءِ النَّاسُ، وَسَمِعْتُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ طَرِيقَة يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْ مُحَمَّد.

قالَ وَاحِدٌ مِنْهُم: مَا رأيُكُمْ فى أنْ نَحْبِسَه؟

رَدَّ إبْليس: سَيَهْرُبُ مِنْكُم.

قَالَ آخَرَ: تَعَالَوا نُخْرِجْهُ من بَلَدنا.

رَدَّ إبْلِيس: سَيَعُودُ إلَيْكُم.

ظَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ يَقُولُ فِكْرَةً فَلا يُوافِقُونَ عَلَيها، إلى أنْ قَالَ إبْلِيسُ:

ـ أفْضَلُ شَيء، نَخْتَارُ وَاحِداً من كُلِّ قَبِيلَةٍ وَيَذْهَبُونَ إلى بَيْتِه، وَعِنْدَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ يَهْجُمُونَ عَلَيْه وَيُخَلِّصُونَنا منْهُ، فَلا تَسْتَطِيعُ قَبِيلَتُهُ أنْ تُدَافِعَ عَنْهُ أوْ تأخُذَ بثأرِه.

وَوَافَقَ الْحَاضِرُونَ على فِكْرَةِ إبْلِيسَ. وَخَرَجُوا لكَي يُنَفِّذُوها.

وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّقِّ الَّذِى أعِيشُ فِيه، وَزَحَفْتُ لَيلا حَتَّى بَيْتِ مُحَمَّد. وَرَأيْتُهُمْ يُحِيطُونَ بِه يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ. وكَانُوا يَنظُرُونَ مِنْ ثُقْبِ الْبَابِ إلى الْفِرَاشِ الَّذِى يَنَامُ فِيهِ مُحَمَّدٌ، لِيَجِدُوهُ فِى مَكانِه، وَعَلَيْه الْغِطَاءُ.

وَحَدَثَ أمْرٌ عَجِيبٌ. لَقَدْ ثَقُلَتْ أجْفَانُ الرِّجَالِ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِبَيْتِ مُحَمَّد. وَثَقُلَتْ أجْفَانِى أنَا أيضًا. وإذَا بِنَا جَمِيعًا، فِى نَوْمٍ عَمِيقٍ، لَمْ نَسْتَيْقِظْ مِنْهُ إلا عِنْدَ الْفَجْرِ.

هَبَّ الرِّجَالُ يَنْظُرُونَ مِنْ ثُقْبِ الْبَابِ، فَيَجِدُونَ ابْنَ عَمِّه عَلِىَّ بْنَ أبِى طَالِب عَلى فِرَاشِه. وكَانَ «عَلِىٌّ» صَغِيرًا شُجَاعًا لَمْ يَخَفْ أنْ يَرْقُدَ مَكانَ النَّبِىِّ وَيَضَعَ غِطَاءَهُ مِنْ فَوْقِه. وَحِينَ خَرَجَ أمْسَكَ الْجَمِيعُ بِه يَسْألُونَهُ دُونَ أنْ يَجِدُوا جَوَابًا:

ـ مَنْ أنْتَ؟! ولِمَاذَا أنْتَ فِى فِرَاشِ مُحَمَّد؟!

ـ أيْنَ قَضَى مُحَمَّدٌ لَيْلَتَه؟

ـ أيْنَ مُحَمَّدٌ الآن؟!!

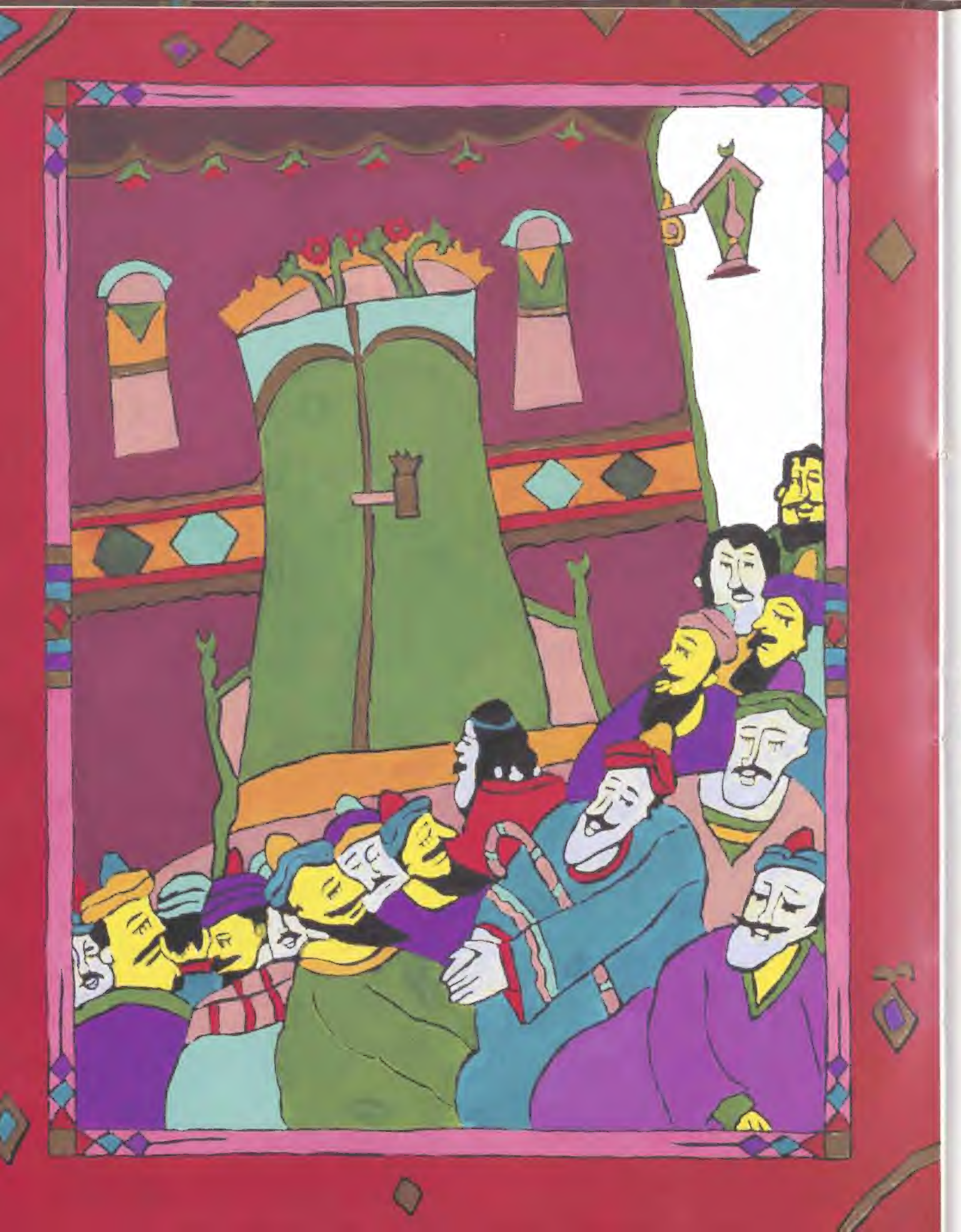
كَانَ «عَلِىٌّ» يُجِيبُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَة: لا أعْرِفُ.

وفِى هَذه اللَّحْظَة، كَانَ مُحَمَّدٌ، وَصَدِيقُهُ أبُو بَكْر قَدْ خَرَجَا مِنْ مَكَّةَ الَّتِى لَقِيَا فِيهَا الْعَذَابَ! وعِنْدَمَا عَلِمَ إبْلِيسُ بِمَا حَدَث.. رَاحَ يَصْرُخُ فِى النَّاس:

ـ كَيْفَ يَهْرُبُ؟!... اتْبَعُوهُ إلى كُلِّ مَكان!

ونَظَرَ إلىَّ ـ أنَا الثُّعْبَانَ ـ وَقَالَ لِى: ـ أنْتَ؟! لِمَاذَا لا تَلْحَق بِه؟ لِمَاذَا لا تَقْطَعُ عَلَيْه الطَّرِيقَ؟!

قُلْتُ: لَقَدْ سَبَقَنِى.



صَاحَ: تَسْتَطِيعُ أَنْ تُوصِىَ الثَّعَابِينَ وَالْحَيَّات لِيلْدَغُوه!

وَنَظَرَ إلى حصان «سُرَاقَة بن مَالك» وَقَالَ لهُ:

- وأنْتَ، أسْرِعْ، ابْحَثْ عَنْ مُحَمَّد. ولكَ جَائزَةٌ أنْتَ وَصَاحبك.

وَعنْدَمَا وصل مُحَمَّدٌ عنْدَ الْغَار الَّذى اخْتَفَى فيه هُوَ وَصَاحِبُهُ أبُو بكْر الصِّدِّيقُ. كَانَتْ الثَّعَابين وَالْحيَّاتُ فى الشُّقُوق تَنْتَظِرُ وُصولَهُ، لتَنْفيذ أوَامرى وأوامر إبْليس. وَقَدْ تَنَبَّهَ أبُو بكْر لهَذَا، وَحكَتْ لى الثَّعَابينُ وَالْحَيَّاتُ، أنَّهُ قَطَعَ مَلابسَهُ وَرَاحَ يَسُدُّ بها هَذه الشُّقُوقَ، فَحَبَسَهَا وَبَقى شَقٌّ وَاحدٌ لَمْ يَجدْ مَا يَسُدُّهُ به، لذَلكَ جَلَس منْ فَوْقه وَوَضَعَ عَلَيْه كَعْبَ قَدَمه.

وَنَجَحَتْ وَاحدَةٌ منَ الْحَيَّات فى لَدْغ صَديق الرَّسُول وَرَفيقه.. وكَانَ عَلَيْه الصَّلاة وَالسَّلامُ يَنَامُ عَلى حجْر صَديقه، فَبَكَى أبُو بكْر منَ الألَم، وَنَزلَتْ دُمُوعُهُ عَلى خَدِّ الرَّسُول، فَاسْتَيْقَظ ليَعْرفَ مَا حَدَثَ.

فَمَسَحَ بيَده الْكَريمَة عَلى مَوْضع اللَّدْغَة، فَذَهَبَ الألَمُ، وَاسْتَطَاعَ أبُو بكْر أنْ يَقفَ عَلى قَدَمه،

كَـأنَّ شيئًا لَــمْ يكُنْ، لِكَى يَمْضِى مَعَ مُحَمَّـدٍ فى طَرِيقهما الطَّويل إلى الْمَدينَـةِ الْمُنَوَّرَة. .

لا أسْتَطِيعُ أنَا، وَزُملائى الثَّعَابِينُ، أنْ نَمْنَعَهُ أوْ نَلْحَقَ بِـهِ. فَقَــدْ نَجَّـاهُ اللهُ من إبْلِيسَ، وَمِنْ زُمَلائى، وَمِنِّى!

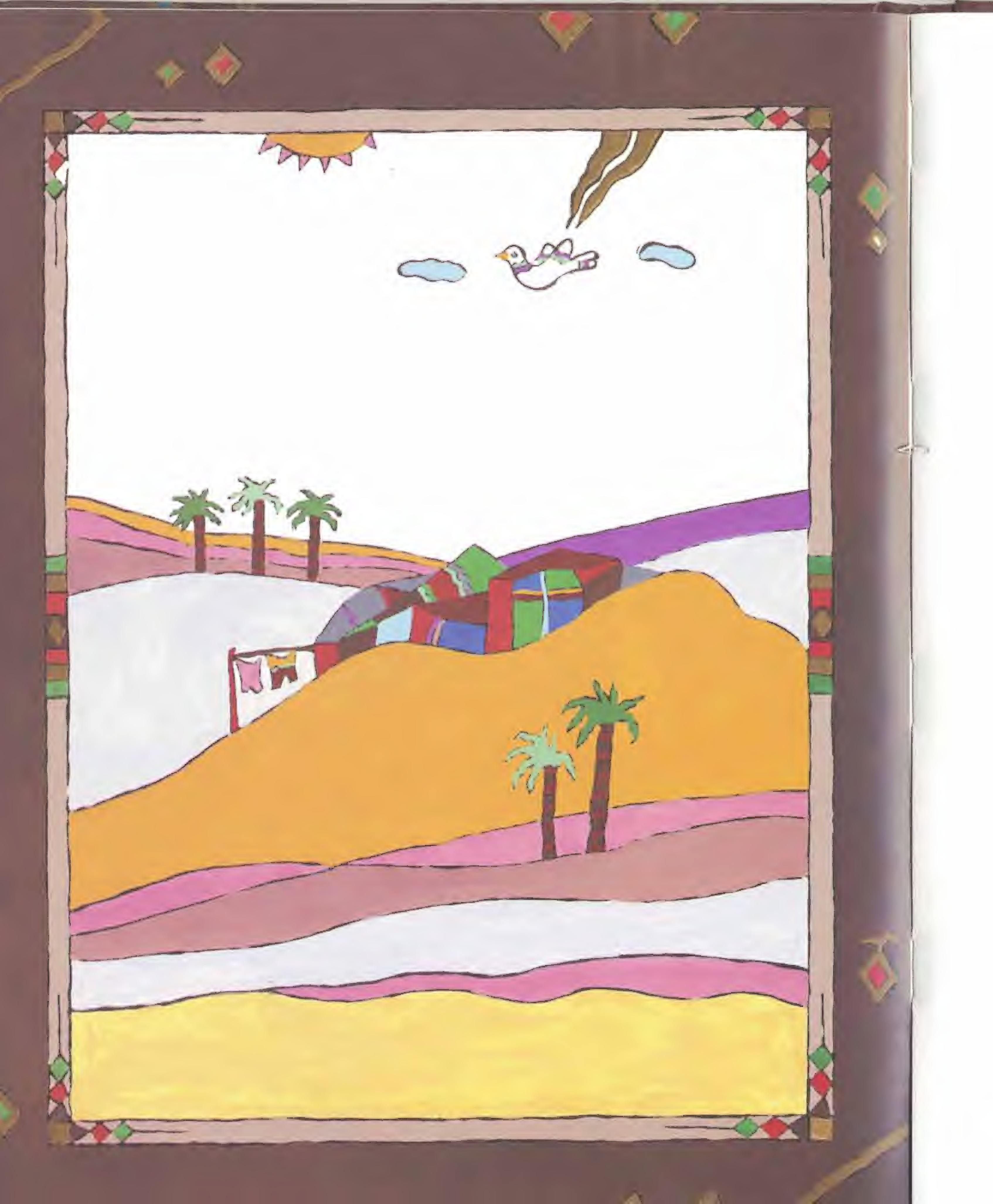
﴿ وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

صدق الله العظيم



أنا حَمَامَةٌ





وأنا بيْضَاءُ، وَديعَةٌ، طَيِّبَةٌ . . أطيرُ وأرَفْرِفُ، وأهْبطُ لألْتَقطَ الْحَبَّ منْ سَاحَةِ الْكَعْبَة، لا أخافُ أحَدًا، ولا يَخَافُ منِّى أحَدٌ. وكُنْتُ فى ذَلكَ الصَّباح الْجَميل أطيرُ فَوْقَ غار فى الطَّريق بَيْنَ مَكَّةَ والْمَدينَة. كُنْتُ أبْحَثُ عَنْ مكان أضعُ فيه الْبَيْضَ، لكَى أرْقُدَ عَلَيْه، ليَفْقسَ، وتَخْرُجَ منْهُ حَمَامَتَان صَغيرَتان. ولَقَدْ رأيْتُ هُنَا وَهُنَاكَ ثَعَابينَ كَثيرَةً، وَحَيَّات فى ذَلكَ الْغَار، وكَانَ يَبْدُو أنَّها تَنْتَظرُ شَيْئًا. ولَمْ أسْتَطعْ أنْ أقْتَربَ منْها، لأنَّها إنْ أمْسكَتْ بى ابْتَلَعَتْنى.

لَقيتُ عَنْكَبُوتًا رَقيقًا، سألْتُهُ:

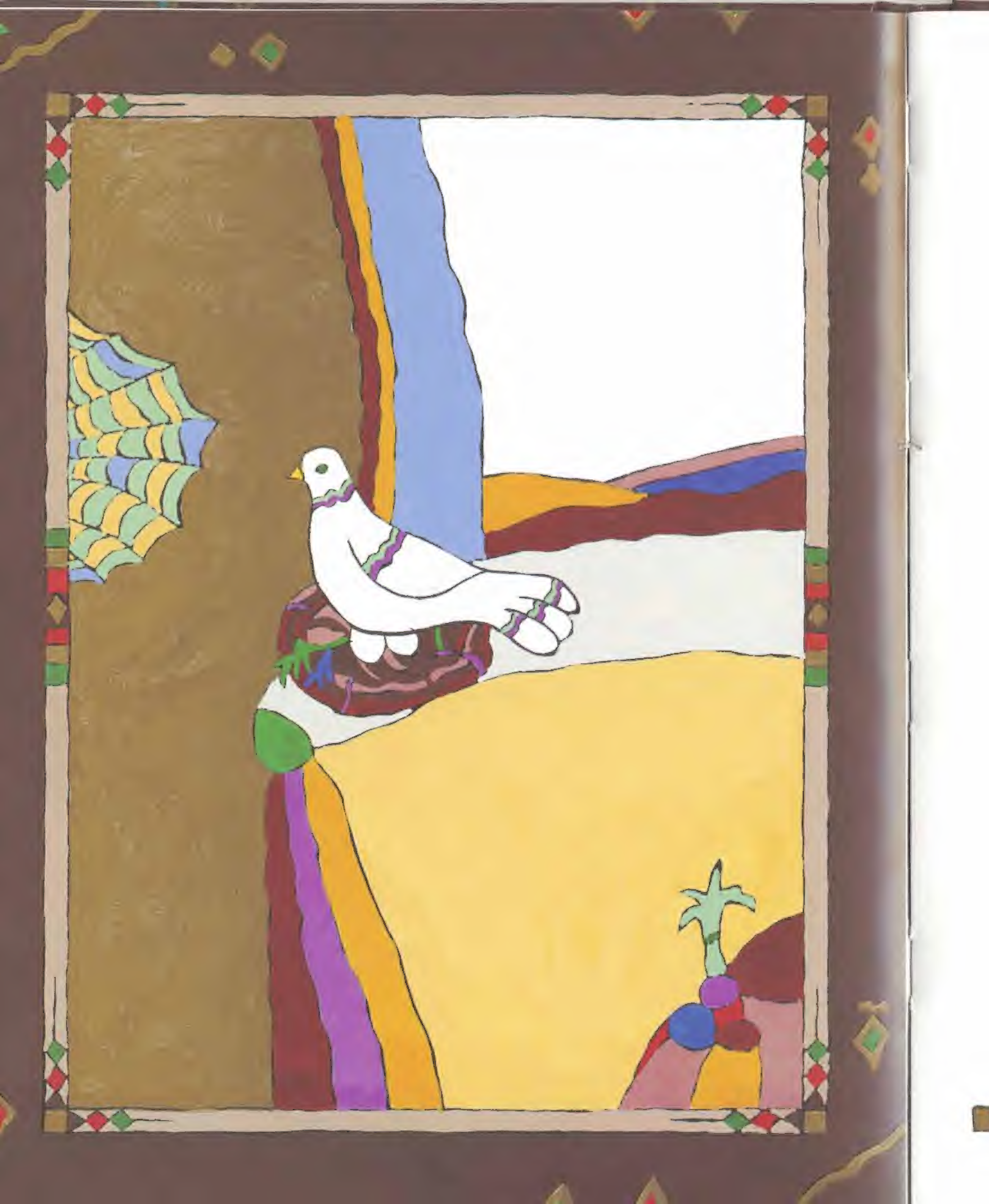
- لمَاذَا تَجْتَمعُ كُلُّ هَذه الثَّعَابين؟

قَالَ: عنْدَهُمْ أوَامرُ منَ الثُّعْبَانِ الْكَبير فى مكَّةَ لكَى يَقْطَعُوا الطَّريقَ على رَجُلَيْن.

سألْتُهُ: مَنْ هُمَا؟

أجَابَ: لا أعْرف . . وأنْت يَا حمامَةُ تَسْتَطيعينَ الطَّيَرَان إلى بَعيد، ويُمْكنُك أنْ تَعْرفى.

طرْتُ، وارْتَفَعْتُ فى الْجَوِّ . . وسَافَرْتُ مَسافَةً طَويلَةً قَبْلَ أنْ أرَى الْمُهَاجرين: رأيْتُ الرَّسُولَ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَمَعَهُ أبُو بكْر . . وكَانَ الْحَديثُ يَدُورُ بَيْنَهُمَا عَنْ مكان يَسْتَريحان فيه ويَخْتَفيَان عَن الْكُفَّار الَّذينَ لا بُدَّ أنَّهم يُطَارِدُونَهُما . .



وَفكّرَا فى

الْغَـــار ، فَطِرْتُ

أَدُلُّهُما عَلَيْه ، وأحَاوِلُ أَنْ أَنْظِّفَهُ

عِنْدَمَا تأخّرَا . فَقَدْ خِفْنَا عَلَيْهما مِنْ أَهْلِ

مكّةَ . وَلكنّهُما وَصلا بخَيْرٍ ، وَدَخَلا الْغَار .

وَسَدَّ أَبُو بكْرٍ شُقُوقَ الحيَّات وَبَقِىَ شَقٌّ تَمنّيْتُ أنا الْحَمَامَةَ لَوْ أَنّنى أَسُدُّهُ بجِسْمى . وَفكّرَ الْعَنْكَبُوتُ أَنْ يُغْلقَه بخُيُوطه ، لكنّ أَبَا بكْرٍ سَدَّهُ بِقَدَمه وَجَلَسَ مِنْ فَوْقِه .

وكُنْتُ أطيرُ هُنا وَهُناك ، فى قَلَقٍ وخَوْف . وَسَألَنى الْعَنْكَبُوتُ :

ـ لماذَا لا تَهْدَئين؟ ولمَاذَا لا تَبْحَثِينَ عَنْ مكان تَضَعِينَ فيه الْبَيْضَ؟!

قُلْتُ : إنّى خائفَة مِنْ أهْلِ مكّةَ . أُريدُ أَنْ أَرْقُبَ الطّرِيقَ خَشْيَةَ أَنْ يَصلُوا إلى الْغَار .

وَظَلَلْتُ أطيرُ نَحو مكّة ، وأقْطَعُ مَسافَة طويلَة ، ثُمَّ أعُودُ . وَرَجعْتُ آخرَ مَرَّة خَائفَة أرْتَجِفُ وأرْتَعشُ . وأسْرَعْتُ إلى الْعنكَبُوت أقُولُ لَهُ :

ـ تَصوّرْ . الأشْرَارُ قَادمُونَ . لَوْ رأوْا مُحمَّدًا وصَديقَهُ ، فَلَنْ يُفْلتا منْهُم . مَاذَا نَفْعَل؟

سكَتَ الْعَنْكَبُوتُ قَليلا يُفكّرُ ، ثُمّ أجَابَ :

ـ سَوْفَ أنْسجُ خُيُوطى عنْدَ الْبَاب لأغْلقَهُ .

وكدْتُ أَضْحكُ لأنّهُ يَتَصَوّرُ أَنّ خُيُوطَهُ تُغْلقُ الْبَابَ . ولكنّى لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَسْرَعْتُ مَعَهُ ، وَرُحْتُ أَنْقُلُ عُشّى ، وبَيْضى . وَعنْدَ الْبَاب رَقَدْتُ فَوْقَ الْبَيْض ، فى نَفْس الْوَقْت الّذى كَانَ فيه الْعَنْكَبُوتُ يَنْسجُ خُيُوطَهُ بسُرْعَة كَبيرَة . وَجَاءَ الْكُفّارُ ، وَعندَ باب الْغَار وَقَفُوا يتساءَلون :

- هَلْ دَخَلَ مُحَمَّدٌ وَصَاحِبُهُ الْغَارَ؟

- رُبَّمَا.

- لا بُدَّ أَنَّهُمَا دَخَلا الْغَارَ . .

يَرُدُّ آخَرُ: لا أَظُنُّ ذَلِكَ . . إِنَّهُ مَكَانٌ مَلِيءٌ بِالْحَيَّاتِ وَالثَّعَابِينِ . .

وَتَسْتَمِرُّ الْمُنَاقَشَةُ: نَدْخُلُ . . لا نَدْخُلُ . . نَدْخُلُ . . لا نَدْخُلُ .

وَارْتَفَعَ صَوْتٌ يُنْقِذُنَا مِمَّا نَحْنُ فِيهِ. قَالَ الصَّوْتُ: - كَيْفَ نَدْخُلُ هَذَا الْغَارَ، وَلَمْ يَدْخُلْهُ أَحَدٌ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ؟!

سَأَلُوهُ: كَيْفَ عَرَفْتَ هَذَا؟!

أَجَابَ: انْظُرُوا . . الْعَنْكَبُوتُ نَسَجَ خُيُوطَهُ بِالْبَابِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ دَخَلَ لَتَقَطَّعَتْ هَذِهِ الْخُيُوطُ. وَالْحَمَامَةُ رَاقِدَةٌ فِي عُشِّهَا عَلَى بَيْضِهَا، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مَرَّ مِنْ هُنَا لَطَارَتِ الْحَمَامَةُ، وَانْكَسَرَ الْبَيْضُ . . إِنَّ أَحَدًا لَمْ يَدْخُلْ هَذَا الْغَارَ مُنْذُ وَقْتٍ بَعِيدٍ!!

قَالُوا لَهُ: صَدَقْتَ . . لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَا هُنَا.

وَبَدَأَتْ أَقْدَامُهُمْ تَخْطُو بَعِيدًا عَنِ الْغَارِ، وَابْتَعَدَتْ، وَابْتَعَدَتْ . . وَأَنَا وَالْعَنْكَبُوتُ نَشْعُرُ بِرَاحَةٍ كَبِيرَةٍ كُلَّمَا خَفَتَ وَقْعُ أَقْدَامِهِمْ. وَمَا إِنْ غَابُوا عَنِ الأَنْظَارِ حَتَّى طِرْتُ أُصَفِّقُ بِجَنَاحَيَّ فَرَحًا. وَرَاحَ الْعَنْكَبُوتُ يَرْقُصُ طَرَبًا وَسْطَ خُيُوطِهِ. وَاسْتَيْقَظَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، لِيَضَعَ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ مَكَانَ لَدْغَةِ الْحَيَّةِ فِي قَدَمِ أَبِي بَكْرٍ، فَيُشْفَى، فَتَزْدَادُ فَرْحَتُنَا . . أَنَا وَالْعَنْكَبُوتُ!!

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَرَاحَ النَّبِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ، قَامَا لِكَيْ يُوَاصِلا رِحْلَتَهُمَا. وَطِرْتُ - أَنَا الْحَمَامَةَ - مِنْ فَوْقِهِمَا لِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ، وَأَنَا أُرَفْرِفُ بِجَنَاحَيَّ، وَأَقُولُ لَهُمَا مِنْ قَلْبِي: - مَعَ السَّلامَةِ . .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾.

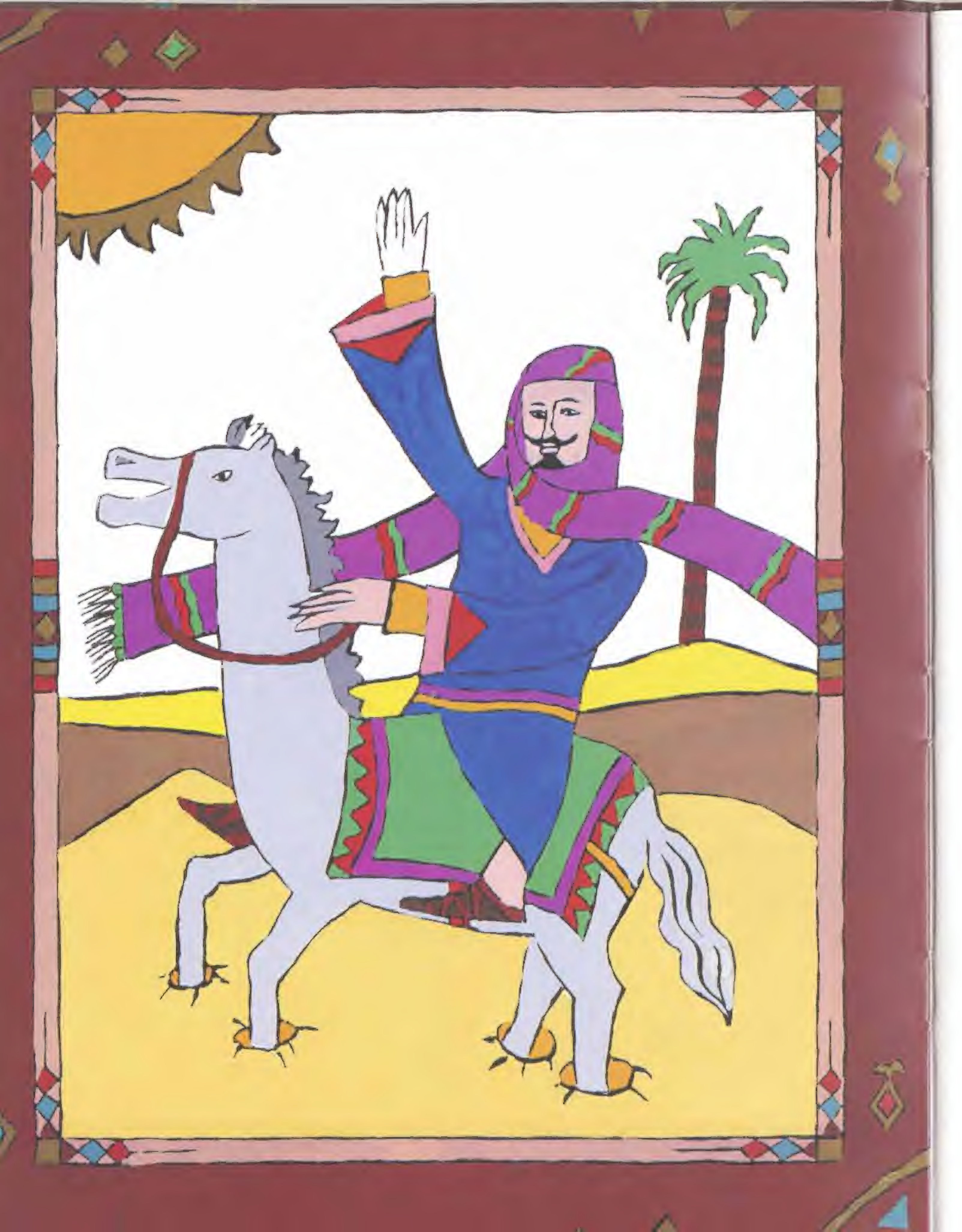
صدق الله العظيم




أنا حِصانٌ







انطَلَقْتُ فى ذَلكَ الصَّباح من مكَّةَ، وَمنْ فوقى صاحبى «سُرَاقَةُ بْنُ مالك»، نُريدُ أنْ نَلْحَقَ بمُحَمَّد وَصاحبِه، فى طَريقهما إلى الْمَدينَة.

وكَانَ كَثيرُونَ يَبْحَثُونَ عَنْهُ مثْلنا، لكَى يأخُذُوا الْجَائزَةَ الَّتى قَرَّرَتْها قُرَيْشٌ لمَنْ يأتى بمُحَمَّد حَيًا أوْ مَيِّتًا. وكَانَ إبْليسُ قَدْ صَرَخَ فىَّ لكَى ألْحَقَ بمُحَمَّد، ليَفُوزَ صَاحِبى بمائَة نَاقَة، وأفُوزَ أنا بسَرْج جَديد. ولَمْ أكُنْ أرْغَبُ فى جَائزَة إبليس، ولكنَّ صَاحبى ضَرَبَنى لكَى أسْرِعَ بالْجَرى وَهُوَ يُمْسكُ باللِّجامِ، وَمَعَهُ رُمْحٌ وَقَوسٌ وأسْهُمٌ، وأمَلُهُ أنْ يَحْصلَ بكُلِّ هَذه الأسْلحَة عَلى الرَّسُول وَصَاحبه، أوْ يُقَاتلَهُمَا حَتَّى يُنْهِىَ حَيَاتَهُما.

وكَانَ سُرَاقَةُ منْ أحْسَنِ الْخَيَّالَة الْعَرَب، وكُنْتُ حصانَهُ الْمفَضَّلَ. وكَانَ أهْلُ مكَّةَ يعَلِّقُونَ آمالاً كَبيرَةً عَلَينا، وَيَنْتَظِرُونَ منَّا أنْ نَعُودَ لنَحْصُل عَلى الْجَائزَة.

وَقَدْ نَجَحْنَا فعلاً، ولَحقنا بمُحَمَّد وأبى بكْرٍ، وَبدَليلِهِما الَّذى يُرشدُهُما للطَّريق. وَخَاف أبُو بكْرٍ، ولَكنَّهُ تَذكَّرَ كَلمَةَ الرَّسُول لَهُ فى الْغَار:

ـ لا تَحْزَنْ، إنَّ اللهَ مَعَنا.

وَفَجاةً وَجَدْتُ نَفْسى أتَعَثَّرُ بلا سَبَب حَقيقىٍّ مَعَ أنِّى كُنْتُ أخْطُو فى يَقَظَة. وَرأيْتُنى ألْقى براكبى من فَوقى على الأرْضِ. ولَمْ يكُنْ قَد سَبَقَ لَهُ أنْ سَقَطَ منْ فَوْق ظَهْرِ جَواد قَطُّ!

وَعَادَ فَرَكِبَنى، وَهُوَ حَانِقٌ غَاضِبٌ! وَتَقَدَّمَ وَاقْتَرَبَ مِنَ الرَّسُولِ وَصَدِيقِه، وَهُوَ يَصْرُخُ فِيهِمَا لِكَى يَقِفَا، وَإِلا فَسَوفَ يَقْتُلُهُمَا. وَاقْتَرَبَ وَاقْتَرَبَ، وَوَقَفَ «مُحَمَّدٌ» وَصَاحِبُه. وَعِنْدَمَا أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنْهُمَا، رَفَعَ «مُحَمَّدٌ» بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ فِى صَوْتٍ عَمِيقٍ: يَا رَبُّ . .

. . وَفَجْأَةً وَجَدْتُ رِجْلَىَّ الأَمَامِيَّتَيْنِ تَغُوصَانِ فِى مَكَانِ بِئْرٍ قَدِيمٍ غَطَّتْهُ الرِّمَالُ فَلَمْ أَلْحَظْهُ، وَمَعَهُمَا سَاقَا صَاحِبِى، إِذْ أَنْسَتْنَا فَرْحَتُنَا بِالإِمْسَاكِ بِالْمُهَاجِرَيْنِ أَنْ نَتَبَيَّنَ الطَّرِيقَ، وَحَاوَلْنَا انْتِزَاعَ أَقْدَامِنَا مِنَ الْحُفْرَةِ، فَلَمْ نَسْتَطِعْ، وَبَدَأْتُ أَصْهِلُ، وَصَاحِبِى يَصْرُخُ قَائِلاً:

ـ أَنْقِذْنَا يَا مُحَمَّدُ، وَسَنَعُودُ مِنْ حَيْثُ أَتَيْنَا . .

وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَأَبُو بَكْرٍ وَالدَّلِيلُ يَسْتَعِدُّونَ لِمُغَادَرَتِى وَصَاحِبِى، وَسَاقَانَا مَدْفُونَتَانِ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ عَادَ إِلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُنْهِى حَيَاتَنَا، وَأَرْجُلُنَا مُقَيَّدَةٌ سَجِينَةٌ . .

وَلاَ نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِه، غَيْرَ أَنَّ مُفَاجَأَةً كَانَتْ فِى الانْتِظَارِ . . ذَلِكَ أَنَّهُ رَاحَ يُخَلِّصُ سَاقَ سُرَاقَةَ الْيُمْنَى، وَنَجَحَ فِى

ذَلِكَ، ثُمَّ رَاحَ يَجْذِبُ رِجْلِى إِلَى أَنْ أَخْرَجَهَا . . ثُمَّ دَارَ إِلَى الجَانِبِ الأَيْسَرِ، وَفَعَلَ الشَّىءَ نَفْسَهُ فِى أَنَاةٍ وَصَبْرٍ . . وَهَكَذَا أَنْقَذَنَا.

أَحْسَسْتُ بِرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِى أَنْ أَعُودَ إِلَى مَكَّةَ، نَاجِيًا بِنَفْسِى. أَمَّا سُرَاقَةُ فَقَدْ طَمِعَ فِى الْجَائِزَةِ، وَمَضَى يَبْغِى الْوُصُولَ إِلَى نَاقَةِ الرَّسُولِ، وَمَا أَنْ خَطَا بِضْعَ خُطُوَاتٍ حَتَّى أَحَسَّ بِأَلَمٍ شَدِيدٍ، وَاكْتَشَفَ أَنَّهُ قَدْ جُرِحَ، وَرَاحَ يَنْزِفُ، فَتَوَقَّفَ، وَتَمَطَّى مُتَهَالِكًا عَلَى الرِّمَالِ، وَمِنْ جَدِيدٍ ارْتَفَعَتْ صَرَخَاتُنَا عَالِيَةً تُنَاشِدُ الرَّسُولَ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا، وَكَانَ أَكْرَمَ مِنْ أَنْ يَتْرُكَنَا نَهْلَكُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، خَاصَّةً وَسُرَاقَةُ يُقْسِمُ بِكُلِّ الْمُقَدَّسَاتِ بِأَنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ، وَلَنْ يُوَاصِلَ اقْتِفَاءَ أَثَرِهِمْ . . .

وَأَنْقَذَنَا الرَّسُولُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، وَقَالَ سُرَاقَةُ: لَقَدْ مَنَعَكَ اللهُ عَنِّى يَا «مُحَمَّدُ»، وَكُنْتُ أَطْمَعُ فِى مِائَةٍ مِنَ الْجِمَالِ . . وَإِنِّى لأَرْجُو مِنْكَ شَيْئًا . .

سَأَلَهُ أَبُو بَكْرٍ: مَا هُوَ؟

قَالَ: يَكْتُبُ لِى كِتَابًا . . حَتَّى إِذَا جِئْتُهُ فِى يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ عَرَفَنِى وَقَضَى لِى حَاجَتِى.

قَالَ النَّبِىُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: اكْتُبْ لَهُ يَا أَبَا بَكْرٍ . .

وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ «لِسُرَاقَةَ» عَهْدًا عَلَى عَظْمَةٍ، وَأَلْقَاهَا إِلَيْهِ . .

فَوَضَعَهَا سُرَاقَةُ فِى جَيْبِه، وَرَكِبَنِى، وَرَجَعْنَا إِلَى مَكَّةَ، وَأَنَا لا أُصَدِّقُ أَنِّى نَجَوْتُ.

وكَانَ صَاحِبى يقُولُ لِكُلِّ الناسِ : إنَّنى لَمْ أجِدْ مُحَمَّدًا وَصَاحِبَهُ . .

وكُنْتُ أقُولُ الشَّىْءَ نفْسَه لِلْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمالِ ، حَتَّى لا تَعُودَ تُحَاوِلُ أنْ تَتْبَعَ مُحَمَّدًا وَصَاحِبَهُ ، وَهُمَا فِى الطَّرِيقِ إلَى المَدِينَةِ .

﴿ يأيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أنزِلَ إلَيْكَ مِن ربِّكَ وَإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

صدق الله العظيم



أنا عَنْزَةٌ





لَقَدْ رأيْتُمْ مِثْلى كَثِيراً. أمَّا أنَا بالذَّات، فَلَمْ تَرَوْنى، لأنِّى عِشْتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، أيَّامَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ من مكَّةَ إلى الْمَدِينَةِ.

وَلَمْ أكُنْ فى مكَّةَ وَلا فى الْمَدِينَةِ. وَلكنِّى عِشْتُ مَعَ صَاحِبَتى «أمِّ معْبد» فى الطَّرِيقِ بيْنَ الْبَلَدَيْنِ.

وَ«أمُّ معبد» سَيِّدَةٌ طَيِّبَةٌ شَرِيفَةٌ، عَلَى خُلُقٍ كَرِيمٍ. وكانَتْ فى خَيْمَتِهَا، وأنَا مَعَهَا بَعْدَ أنْ خَرَجَ زَوْجُهَا بِالْعَنْزَاتِ الأخْرَى بَحْثًا عَنْ طَعَامٍ لَهَا.

وَفى هذه اللَّحظة جَاءَ مُحَمَّدٌ وأبُو بكْرٍ. وَسَألَهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ هَلْ عِنْدَهَا طَعَامٌ.. لَبَنٌ أوْ تَمرٌ أوْ لَحْمٌ، أوْ أىُّ شَىءٍ تَبِيعُهُ لَهُمَا؟..؛ فَقَدْ شَعَرَ كُلٌّ منهُما بِالْجُوعِ، وَالرِّحْلَةُ طَوِيلَةٌ.

فَقَالَتْ «أمُّ معْبد» الْكَرِيمَةُ الطَّيِّبَةُ:

- لَوْ كَانَ عِنْدى طَعَامٌ، لَدَعَوْتُكُمَا إلَيْهِ. ولكِنَّنَا - للأسَفِ - فُقَرَاءُ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا شَىْءٌ.

وسَمِعَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَوْتى.. كُنْتُ أصِيحُ: مَاءْ.. مَاءْ.. مَاءْ.. مَاءْ. كَأنِّى أذَكِّرُهُمْ بِوُجُودِى، وأنَبِّهُهُمْ إلَى مكَانى. فَلَمَّا سألاهَا عَنِّى قَالَتْ:

هذِهِ عَنْزَةٌ مَرِيضَةٌ، مُتْعَبَةٌ لَمْ تَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ إلَى الْمَرْعى مَعَ بَقِيَّةِ الْغَنَمِ.

فَسألاهَا: ألَيْسَ في ضَرْعِهَا لَبَنٌ؟

فأجابتْ: لبنٌ؟ . . منْ أينَ تأتى باللبن، وهىَ هزيلةٌ جائعةٌ؟!

وصحتُ أنا منْ جديد: ماءْ . . ماءْ . . ماءْ . .

وفرحتُ والرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ يستأذنُها فى حلب لبنى. ووافقتْ أمُّ معبد، وهى متأكدةٌ منْ أنَّهُ ليسَ عندى قطرةٌ واحدةٌ من اللبن. وامتدتْ يدُهُ المباركةُ الطيبةُ، ولمستْ ضرعى، وكانَ عليه الصلاةُ والسلامُ يقولُ:

ـ اللهُمَّ، باركْ لها فى عنزتها.

ودهشتُ أنا نفسى لما حدثَ. ولمْ أصدقْ أنَّ هذا اللبنَ منْ ضرعى، لأنَّهُ نزل كثيرًا، غزيرًا، دسمًا. . وملأ عليه الصلاةُ والسلامُ وعاءً من اللبن أعطاهُ لأمّ معبد لكىْ تشربَهُ. وكانتْ تنظرُ بعينينِ واسعتينِ إلى

الوعاء، مندهشةً لهذا الذى تراهُ . . وأذهلها أنْ يكونَ عندى كلُّ هذا اللبن! وشربتْ بعضَ ما فى الوعاء خوفًا منْ ألا يكونَ هناكَ لبنٌ آخرُ. ولكنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ طمأنها وأراها الوعاءَ الآخرَ الذى ملأهُ ليشربَ منهُ هوَ وأبو بكر. وطلبَ إليها أنْ تشربَ حتَّى تشبعَ. فأفرغتْ أم معبد كلَّ ما في الوعاء منْ لبن فى جوفها. وشربَ أبو بكر الصدّيقُ . . وكانَ النبىُّ آخرَ منْ شربَ . . ثُمَّ تقدَّمَ فحلبنى مرَّةً أخرى حتَّى امتلأ وعاءُ «أمّ معبد» وتركهُ لها. ثُمَّ ودَّعها شاكرًا لها حُسْنَ ضيافتها، وكرمَ استقبالها.

وبدأ المهاجرُ العظيمُ يُكملُ رحلتَهُ، ومعهُ صديقهُ أبو بكر. وعندما رجعَ «أبو معبد» زوجُ صاحبتى، ومعهُ باقى العنزاتِ الضعيفاتِ التى كانتْ ترعى العشبَ، دُهشَ لأنَّهُ وجدَ عندَ زوجته لبنًا، وسألها:

ـ منْ أينَ لكِ هذا اللبنُ، وليسَ عندكِ هُنا ما تحلبينَهُ؟

فأجابتْ: لقدْ مرَّ علينا رجلٌ مبروكٌ.

وحكتْ «أمُّ معبد» ما حدثَ، وبعدَ أنْ استمعَ زوجُها إلى حكايتها قالَ:

ـ آه . . يظهرُ أنَّ هذا الرجلَ هوَ «محمَّدٌ» الذى تبحثُ عنهُ قريشٌ، وتريدُ أنْ تُمسكَ به . . صفيه لى.

فمضتْ «أمُّ معبد» تصفُهُ قائلةً:

ـ رجلٌ على وجههِ نورٌ، باسمٌ، صوتُهُ عذبٌ، حلوُ الكلام. لا هُوَ بالطويل، ولا هُوَ بالقصير، ترتاحُ لهُ كلَّما نظرتَ إليه، يحترمُهُ منْ معهُ احترامًا كبيرًا، مهذبٌ، على خُلُقٍ عظيم، عندما حلبَ العنزةَ، كانَ آخرَ منْ شربَ منْ لبنها.



بَدأ أبُو مَعْبد يَشرَبُ اللَّبَنَ الْحُلوَ الَّذى أعْطَيْتُهُ لَهُمْ . . تَحيَّةً وبَركَةً، بمُناسَبَة مُرُور سَيِّدنَا مُحَمَّد عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَيْمَة «أمِّ معْبد». وقَالَ «أبُو معْبد»:

ـ هَذَا الرَّجُلُ، هُوَ رَسُولُ الله الَّذى سَمعْنَا عَنهُ. لَيْتَنى قَابَلْتُهُ وَرأيْتُهُ وكَلَّمْتُهُ. لَيْتَنى سرْتُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، وَآمَنتُ بالَّذى يَقُولُهُ.

فَقَالَت «أمُّ معْبد»:

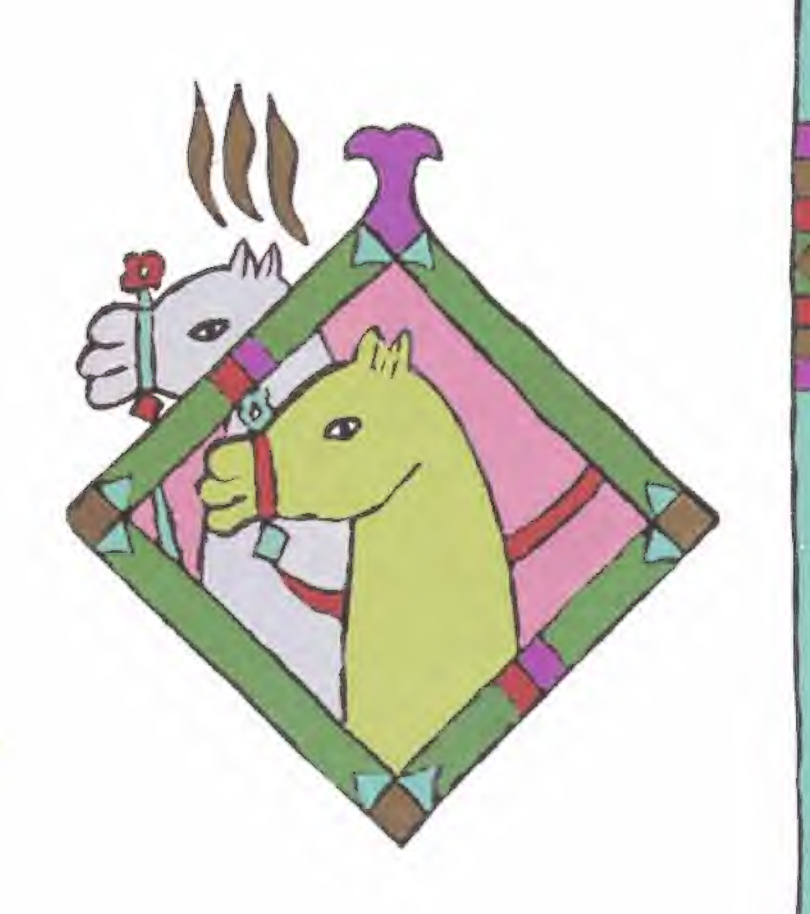
ـ مَا زَالَت الْفُرصَةُ أمَامكَ للبَحْث عَنهُ، وَالْوُقُوف بجَانبه.

وَسَمعَنى «أبُو معْبد» فى هذه اللَّحْظَة أنَادى: مَاءْ . . مَاءْ . . مَاءْ . . مَاءْ . . فَقَامَ منْ مكَانه، وَرَاحَ يَرْبتُ بيَده عَلَى ظَهرى وَهُوَ يَقُولُ:

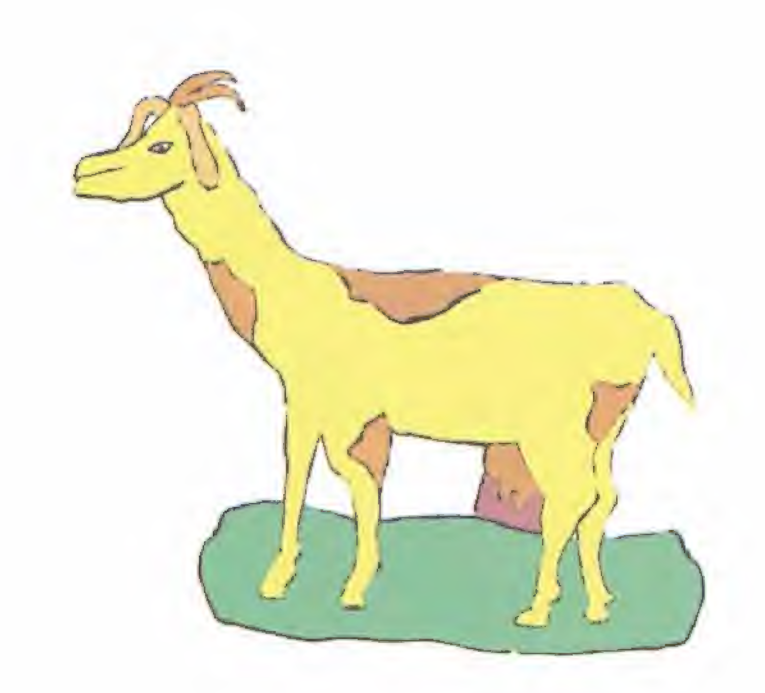
ـ شكرًا . . شكرًا لك يَا عنزَتَنَا . . أنت عَنزَةٌ كَريمَةٌ، وَلَنْ ينسَاك النَّاسُ أبَدًا . . وَلَن يَنسَوْا هَذَا الَّذى حَدَثَ الْيَوْمَ . .

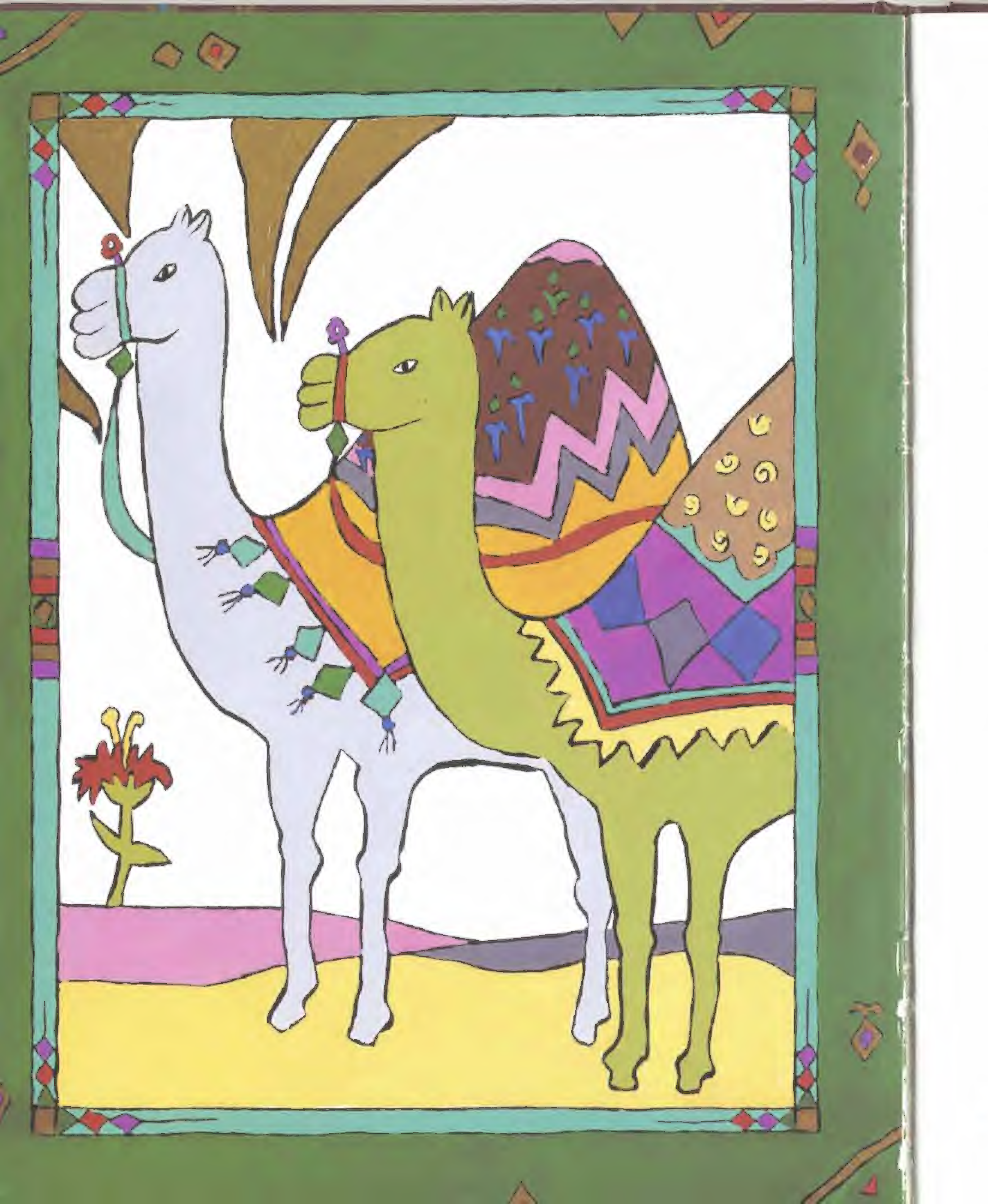
كُنتُ أُريدُ أنْ أقُولَ لَهُ: إنَّنى لَمْ أفْعَلْ شَيْئًا، وَإنَّنى كُنْتُ مُنْدَهشَةً لمَا حَدَثَ، وَالْفَضْلُ كُلُّ الْفَضْل، للْيَد الْمُباركَة الَّتى لَمَستْنى، ولصَاحبهَا الكَريم الَّذى دَعَا الله أنْ يَمْلأَ ضَرْعى باللَّبَن. وَقَد استَجَابَ اللهُ لهَذَا الُّدعاء.

وَلَقَدْ كُنْتُ، وَمَا زلْتُ، سَعيدَةً؛ لأنِّى سَقَيْتُ الرَّسُولَ منْ لَبَنى، وَهُوَ فى رحْلَته الْكَبيرَة، وَهجْرَته الْعَظيمَة منْ مكَّةَ إلى الْمَدينَة: تلْكَ الرِّحْلَةُ الَّتى زَادَتْ من عَدَد الْمُسْلمينَ لدَرَجَة أنِّى لَمْ أسْتَطعْ بَعْدَ ذَلكَ أنْ أعُدَّهُمْ، عنْدَمَا رأيْتُهُمْ عَائدينَ إلَى مكَّةَ، فَاتحينَ، مُنْتَصرينَ، رَافعينَ رَايَةَ الدِّين.



أنا نَاقَةٌ





وَأَنَا ـ أَيْضًا ـ مِثْلُ الْجَمَلِ زَوْجِي، سَفِينَةُ الصَّحْرَاءِ. أَمْشِي فِيهَا بِلا تَعَبٍ وَلا عَطَشٍ، وَأَتَحَمَّلُ السَّيْرَ لِمَسَافَاتٍ طَوِيلَةٍ. وَكُنْتُ أَعِيشُ فِي مَكَّةَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ دَعْوَةُ «مُحَمَّدٍ» إِلَى الإِسْلامِ، وَإِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ. وَكَانَ يَمْلِكُنِي أَبُو بَكْرٍ، صَدِيقُ الرَّسُولِ.

وَعِنْدَمَا قَرَّرَ «مُحَمَّدٌ» وَأَبُو بَكْرٍ الْهِجْرَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ الْكُفَّارُ قَتْلَ الرَّسُولِ، جَاءَ بِي الدَّلِيلُ إِلَى بَابِ الْغَارِ، مَعَ أُخْتٍ لِي، أَقْوَى وَأَسْرَعَ. وَرَكِبَنِي الرَّسُولُ، وَرَكِبَ أَبُو بَكْرٍ أُخْتِي. وَسِرْنَا فِي الطَّرِيقِ إِلَى يَثْرِبَ. وَلَمْ أَشْعُرْ بِتَعَبٍ طَوَالَ الطَّرِيقِ. كَمَا أَنَّ الْحَرَّ لَمْ يُضَايِقْنِي، بَلْ كُنْتُ أَسِيرُ خَفِيفَةً سَعِيدَةً لأَنِّي أَحْمِلُ أَعْظَمَ مُهَاجِرٍ فِي أَعْظَمِ رِحْلَةٍ.

وَرَأَيْتُ الْكَثِيرَ مِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ خِلالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ. لَقَدْ رَأَيْتُ الْحَمَامَةَ وَالْعَنْكَبُوتَ فَوْقَ بَابِ الْغَارِ، كَأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَدْخُلْهُ. وَكَيْفَ لَحِقَ بِنَا «سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ» عَلَى فَرَسِهِ. وَرَأَيْتُ مَنْظَرًا لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ مِنْ قَبْلُ، حِينَ أَشَارَ الرَّسُولُ بِأُصْبُعِهِ فَغَاصَتْ قَوَائِمُهُ فِي الرِّمَالِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. وَشَاهَدْتُ عَنْزَةَ «أُمِّ مَعْبَدٍ». كَانَتْ عَنْزَةً نَحِيلَةً هَزِيلَةً، وَعِنْدَمَا لَمَسَتْهَا يَدُ النَّبِيِّ ﷺ قَدَّمَتْ لَبَنًا غَزِيرًا يَكْفِي الْكَثِيرِينَ وَيَفِيضُ.

كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي رِحْلَتِنَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ «مُحَمَّدٍ» ﷺ وَعَلَى أَنَّ اللهَ مَعَهُ، وَعَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَنْ يَسْتَطِيعُوا التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ. وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْكِيَ لَكُمُ الْكَثِيرَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي كَثِيرًا مَا سِرْتُ فِيهَا. وَكُنْتُ أَقْطَعُ الرِّحْلَةَ فِي أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا. وَلَكِنَّنِي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ قَطَعْتُهَا فِي ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ، مَعَ أَنَّنَا كُنَّا نَسِيرُ لَيْلاً

وَنَخْتَفِى نَهَاراً، لأن كُلَّ الْعُيُونِ تَرْصُدُنَا، وكَثِيرُونَ يَبْحَثُونَ عَنَّا، وتَمَنَّيْتُ عَلَى الله أنْ أتمَّ هذه الرِّحْلَةَ بِالسَّلامَةِ.

وَاقْتَرَبْنَا مِنْ «يَثْرِبَ». وَظَهَرَ نَخِيلُهَا وأشْجَارُهَا مِنْ بَعِيد. وَشَعَرْتُ بِالْبَهْجَةِ وَالْفَرْحَةِ، لأنَّ الرَّسُولَ نَجَا مِنْ أعْدَائِه. وَرُحْتُ أسْأَلُ نَفْسِى عَنْ أهْلِ يَثْرِبَ، وكَيْفَ يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَقَدْ عَلِمُوا وَلا شَكَّ بِخُرُوجِه مِنْ مَكَّةَ إِلَيْهِمْ.



وكَانَتِ الشَّمْسُ تَتَوَسَّطُ السَّمَاءَ حِينَ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ فَوْقِ رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ يَصِيحُ:

ـ هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ جَاءَ.. هَذَا صَاحِبُكُم قَدْ جَاءَ.

وَارْتَفَعَتْ أصْوَاتٌ تُهَلِّلُ وَتَهْتِفُ مِنْ أعْمَاقِ قُلُوبِهَا:

ـ الله أكْبَرُ.. الله أكْبَرُ.

وأحْسَسْتُ بالأرْضِ تَهْتَزُّ لِهَذَا الْهُتَافِ، وشَعَرْتُ بأنَّ الدُّنْيا كُلَّهَا تُرَدِّدُ الهُتَافَ مع الْمُسْتَقْبِلين. ونَزَلَ عَنِّى «مُحَمَّدٌ» وَجَلَسَ مع أبى بكْرٍ فى ظلِّ نَخْلَةٍ، وَالنَّاسُ يَتَدَفَّقُونَ خَارِجِينَ مِنْ يثْرِبَ، إلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الرَّسُولُ. وكَثِيرُونَ مِنْهُمْ أحَبُّوهُ وتَبِعُوهُ، مِنْ قبل أنْ يَرَوْهُ أوْ يَعْرِفُوهُ..



وَسَأَلَتْ إحْدَى النِّسَاء جَارَتَهَا :

ـ أيُّهُمَا النَّبِىُّ؟ وأيُّهُمَا أَبُو بكْرٍ؟

وكَانَ الظِّلُّ قَدْ زَالَ عَن الرَّسُول، فَقَامَ أَبُو بكْرٍ يُظَلِّلُهُ بِرِدَائه. فَعَرَفَت الْمَرْأَةُ أنَّ الْجَالِسَ هُوَ «مُحَمَّدٌ». وأقْبَلَ النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْه، وَيَطْلُبُونَ إلَيْه أنْ يَهْدِيَهُمْ إلَى الْحَقِّ، فَتَحَدَّثَ إلَيْهِمْ، يَطْلُبُ مِنْهُمْ أنْ يَنْشُرُوا السَّلامَ، ويُطْعِمُوا الطَّعَامَ، وأنْ يَتَصَادَقُوا وأنْ يَتَحَابُّوا، وأنْ يُصَلُّوا لله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

ثُمَّ قَامَ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَرَكِبَنِى. وأدْهَشَنِى أنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقُودُنِى، بَلْ تَرَكَ زِمَامِى .. وكَانَ أهْلُ الْمَدِينَة يُحِيطُونَ بِنَا وَسَارَ مَوْكِبُنَا ..

وَأَعْذَبُ نَشِيد فى الدُّنْيَا يَرْتَفِعُ مِنْ أفْوَاه أحِبَّاء الله أطْفَال يَثْرِب .. كَانُوا يُنْشِدُونَ وَيُغَنُّونَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لله دَاعْ

أيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينا ... جِئْتَ بِالأمْرِ الْمُطَاعْ

جِئْتَ شَرَّفْتَ الْمَدِينَةْ ... مَرْحَبًا يَا خَيْرَ دَاعْ

وَسَارَ الْمَوْكِبُ، وأنَا أتَهَادَى بَيْنَ الْجُمُوع، وَالْحُبُّ يُطِلُّ من الْعُيُون، وَالابْتِسَامَاتُ تَمْلأ الْوُجُوهَ. وَدَخَلْنَا الْمَدِينَةَ، فَإذَا بِكُلِّ أُسْرَة تُرِيدُ الرَّسُولَ أنْ يُقِيم عِنْدَهَا :

ـ أقِمْ عِندَنَا يَا رَسُولَ الله . .

ـ لا . . سيُقيمُ الرَّسُولُ عِندَنَا نَحْنُ . .

ـ سَنأخُذُ بالنَّاقَة نقُودُهَا إلَى دَارنَا . .

وَطَلَبَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أن يَترُكُونى . . ويُفسحُوا لى الطَّرِيقَ . . إلَى أن أقفَ حَيْثُ يَشَاءُ الله . فى مكَانٍ مُعَيَّنٍ . . وَرَأيْتُنى لا أستَطيعُ أن أسَيْطرَ عَلَى أقدَامى . . وأحْسَسْتُ أنَّ إرَادَةً خَفيَّةً تَقُودُنى إلَى حَيْثُ لا أدْرى . وَفَجْأةً شَعَرْتُ بأنَّنى لا بُدَّ منْ أن أستَريحَ فى مكَـانٍ وَقَفْـتُ عِندَهُ وَلَمْ أسْتَطعْ أن أترُكَهُ بَلْ بَركتُ فيه .

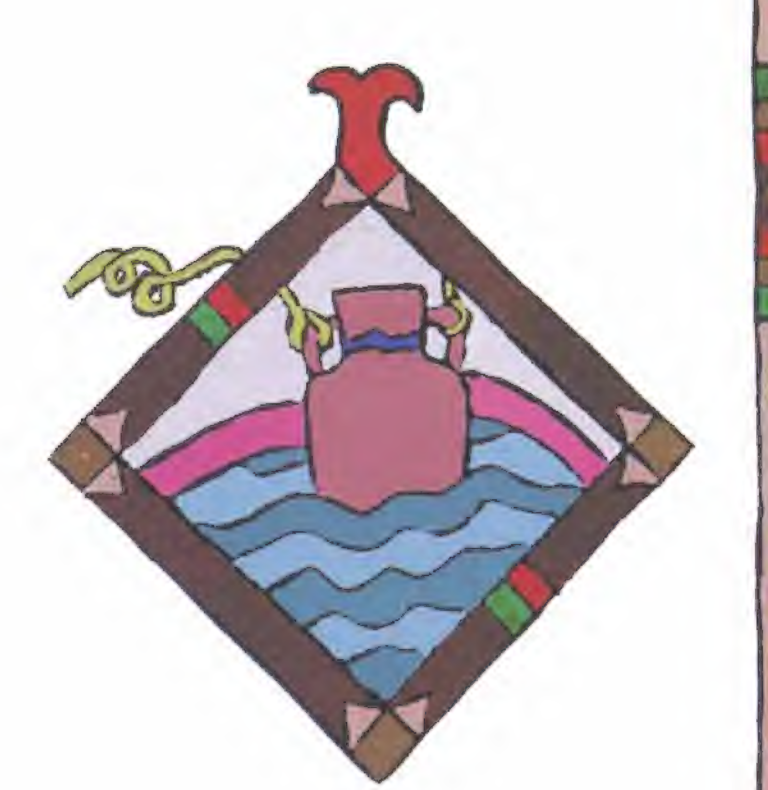
وَهُنَا نَزَلَ عَنِّى رَسُولُ الله ، ليَسْألَ :

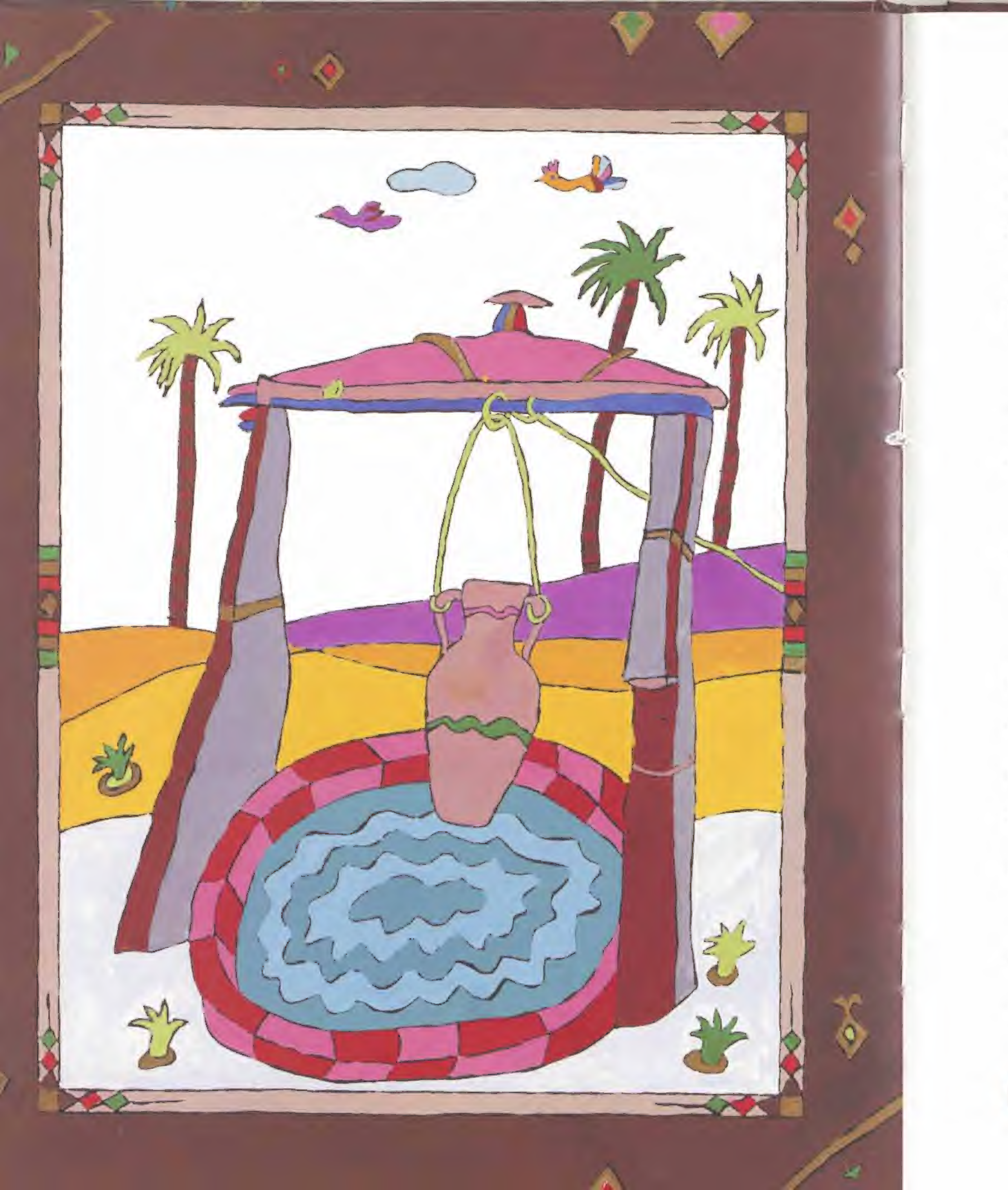
ـ مَنْ صَاحِبُ هذهِ الأرْضِ؟

قَالُوا : إنَّهَا لغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ يَرْغَبَانِ فى أن يُهْديَاهَا لكَ يَا رَسُولَ الله . . وَلكنَّ الرَّسُولَ اشْتَرَاهَا منْهُمَا وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجدًا ، وَبَيْتًا لسكْنَاهُ .

وَقَدْ رَأيْتُ الْكَثيرَ منْ حُبِّ أهْلِ الْمَدينَةِ الَّذينَ سَمَّاهُمُ النَّبىُّ «الأنْصَارَ» لضُيُوفهِم «الْمُهَاجرينَ» إلَيْهِمْ منْ مكَّةَ . كَمَا لَقيتُ الْكَثيرَ منَ التَّكْرِيمِ ، لأنِّى حَمَلْتُ رَسُولَ الله خلالَ هذهِ الرِّحْلَةِ ، وَلأنِّى نَاقَةٌ مُبَارَكَةٌ سَارَتْ إلَى حَيْثُ أرَادَ لَهَا الله أنْ تَسيرَ ، وَبَرَكَتْ حَيْثُ أرَادَ الله لها أنْ تَبْرُكَ . .







اسْمِى «بَدْر». وَمكَانِى بَيْنَ مكَّةَ وَالْمَدِينَة. يَقْصِدُنِى الْمُسَافِرُونَ وَالرُّعَاةُ منْ أَجْلِ الْمَاء. اسْتَيْقَظْتُ يَوْمًا لأَجِدَ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ كُلَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِّى وَعَنِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِى شَهِدْتُهَا، وَالَّتِى حَمَلَتِ اسْمِى فى التَّارِيخ مُنْذُ ١٧ منْ رمَضَانَ منَ الْعَامِ الثَّانِى لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَة. وَقَدْ أَغْضَبَتْ هذه الْهِجْرَةُ قُرَيْشًا. وزَادَ منْ غَضَبِهَا أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ منْ مكَّةَ والأَنْصَارَ منَ الْمَدِينَةِ عَاشُوا إِخْوَةً أَعِزَّاءَ مُتَحَابِّينَ.

وَإِذَا كَانَ الْمُهَاجِرُونَ منْ مكَّةَ والأَنْصَارُ بالمَدِينَة قَدْ عَاشُوا إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ، فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ قَدْ ضَايَقَهُمْ أَنْ تَطُولَ مُدَّةُ وُجُودِهِمْ ضُيُوفًا عَلَى الأَنْصَارِ فى الْمَدِينَة، وأَنْ يَتْرُكُوا أَمْوَالَهُمْ وَتِجَارَتَهُمْ فى مكَّةَ تَحْتَ يَدِ قُرَيْش.

وَقَدْ سَمِعُوا ـ ذَاتَ يَوْمٍ ـ أَنَّ قَافِلَةً منْ تِجَارَةِ قُرَيْش، يَقُودُهَا أَبُو سُفْيَانَ، قَادِمَةٌ منْ «دِمَشْق» الشَّامِ إِلَى مكَّةَ فَرَأَوْا أَنْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا وَيَأْخُذُوا مَا فِيهَا، تَعْوِيضًا لَهُمْ عَمَّا تَرَكُوهُ فى مكَّةَ.

وَعِنْدَمَا بَلَغَ الْخَبَرُ «مكَّةَ» اشْتَدَّ غَضَبُ قُرَيْش عَلَى «مُحَمَّد» وأَصْحَابِه، خَاصَّةً وأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بَعَثَ بِجَمَاعَةٍ من الْمُسْلِمِينَ إِلَى مكَان بَيْنَ مكَّةَ وَالطَّائِف لِيَعْرِفُوا أَخْبَارَ قُرَيْش. وَفى هذَا الْمكَانِ الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ بِبَعْضِ الْكُفَّار، وَتَقَاتَلُوا مَعَهُمْ، وأَسَرَ الْمُسْلِمُون اثْنَيْن، وَقَتَلُوا الثَّالِثَ. لذَلِكَ رأى أَهْلُ مكَّةَ أَنْ يَخْرُجُوا لِقِتَال الْمُسْلِمِينَ. وَزَحَفُوا: أَلْفَ مُقَاتِل، وَمائَةَ فَرَس، غَيْرَ الإِبِل. وَلَمْ يَنْتَظِرِ الْمُسْلِمُونَ قُدُومَهُمْ إِلَى الْمَدِينَة، بَلْ خَرَجُوا لِمُلاقَاتِهِمْ. وَلَمْ يَكُنْ عَدَدُهُم يَتَجَاوَزُ ثُلُثَ عَدَدِ أَعْدَائِهِمْ منْ قُرَيْش. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ سِوَى فَرَسَيْن فَقَطْ.

وَقَبْلَ أَن يَصِلَ الْمُسْلِمونَ إِلَى مكَانِى ـ أَنَا الْبِئْر بَدْر ـ رَغِبَ الرسول فى أن يُعَسْكِرَ بِرِجَالِه فى مكَان بَعِيد عَنِّى، ولَكِنَّ وَاحِدًا منَ الصَّحَابَةِ أَشَارَ عَلَيْه، أن يُعَسْكِروا بِقُرْبِى، لِيَشْرَبَ الْمُسْلِمُونَ منْ مَائِى،

وَلِيَمْنَعوا الْمِيَاهَ عَنْ قُرَيْش. وَاسْتَجابَ الرَّسول لِهذِهِ الفكرَةِ. وَعَسْكَرَ الْمسْلمونَ مِنْ حَوْلِى، وَبَنَوْا مِنْ فَوْقِى حَوْضًا يَشربونَ مِنهُ، وَيَسْقُونَ إبلَهمْ.

وأقبلَت قُرَيْشٌ زاحِفَةً بأَسْلحَتِهَا وَخَيْلِهَا. وأدْركَت خُطَّةَ الْمسْلمينَ الرَّامِيَةَ إلى حِرْمانِها منَ الْمِيَاهِ. وأقسَمَ وَاحِدٌ من الْكُفَّارِ أن يَشرَبَ مِنِّى أوْ يَهْدِمَ الْحَوْضَ مِنْ فَوْقِى. فَخَرَجَ إلَيْهِ «حَمْزَةُ» عَمُّ الرَّسولِ، وَضَرَبَهُ بسَيْفِهِ لِيريحَ منهُ الدُّنيا. وكَانَ من تَقَاليدِ الْمَعَارِكِ الْقَديمَةِ أن تَبْدأ بمبارَزَة فَرْدِيَّة قَبْلَ أن يَلتَحِمَ الْجَيْشَان. خَرَجَ عتبَةُ ـ صَاحِب شُجَيْرَةِ الْعنَبِ فى الطَّائِفِ ـ وأخُوه شَيْبَةُ، وَابْنُهُ الْوَلِيد، يَسْأَلُونَ أصْحَابَ «مُحَمَّد»: هَلْ مِنْ مبارز؟

فَخَرَجَ إلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَرَفَضُوا لأَنَّهمْ يريدونَ أن يُقَاتِلُوا بَعْضًا مِنْ أبْنَاءِ مكَّةَ من الْمُهَاجِرِينَ. فَتَقَدَّمَ إلَيْهِمْ، بَعْدَ حَمْزَةَ، علىُّ بْن أبى طَالِب وَعبَيْدَةُ بْن الْحَارث، وَانتَصَرَ كُلٌّ منهما كَمَا انتَصَرَ حَمْزَةُ، فَصَرَخَ أبو جَهل:

ـ اهْجموا يا أهْلَ مكَّةَ.



وَهكَذَا لَمْ يَبْدأ المسْلمونَ بالْهُجُومِ، كَمَا أمَرَهُمْ الرَّسولُ، بَل انتَظَرُوا هُجُومَ عَدُوِّهِمْ، وَثَبَتُوا فى أمَاكنِهِمْ، وَتَعَالَى هُتَافُهُمْ وَهُمْ يَندَفِعُونَ إلى صفُوفِ الأعْدَاءِ:

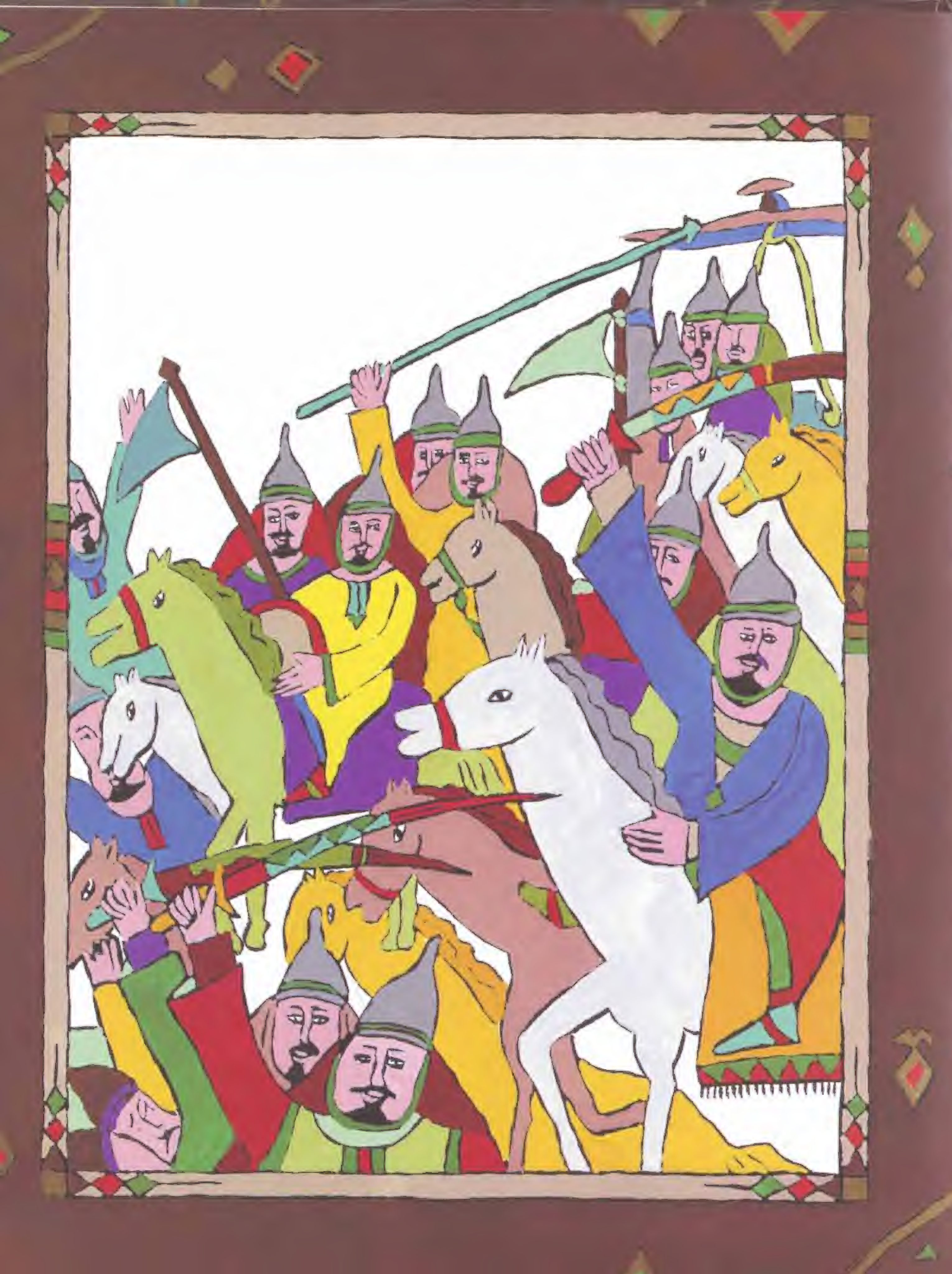
ـ اللهُ أكبَرُ . . . اللهُ أكبَرُ . . . اللهُ أكبَرُ.

وَاشتَدَّ الْقِتَالُ، فَانزَعَجَ أبُو بكر وَهُوَ يَرى كَثْرَةَ عدد الْكُفَّار، وزِيادَةَ أسْلحَتِهِم. وسأل الرَّسُولَ أن يدْعُوَ رَبَّهُ ويطلُبَ منهُ الْمعُونَةَ؛ فَارْتَفَعَ صوْتُ النَّبىِّ:

ـ يا حىُّ يا قَيُّومُ . . . يا حىُّ يا قَيُّومُ . . . يا حىُّ يا قَيُّومُ.

وبعْد قَليل، قَال النَّبىُّ لأبى بكر وللمُسْلمين:

ـ أبْشِرُوا . . . إنَّ النَّصْرَ للمُؤْمنين.



وما أن أعْلَن عليْه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلكَ، حتَّى ارْتَفَعت صيْحاتُ الْمُسْلمين، وزَاد اندفاعُهُمْ للقتَال وهُجُومُهُمْ علَى عدُوِّهِمْ، ومُحمَّدٌ يقُودُ المعْركَةَ، ويسْألُ أصْحابهُ أن يسْتَبْسلُوا ويُذكّرُهُمْ بوعْد الله لَهُمْ بالنَّصْر للأحْياء، وبالْجنَّة للشُّهداء.

وألْقَى أحَدُ الْمُسْلمينَ ببَعْض تَمْرَات كَانَت فى يَده، وقَالَ:

- لَيْس بَيْنى وبَيْنَ الْجَنَّة إلا أن يَقْتُلَنى هؤلاء.

وَهَجَمَ عَلَى «هؤلاء» وَشَدَّدَ الْهُجُومَ، وَاسْتَقْبَلَ الْمَوْتَ فى سَبيل الله بقَلب رَاض وإيمَان عَظيم فى مَعْركَة بَيْنَ ألف رَجُل منَ الْكُفَّار الْمُسَلَّحينَ، فيهمْ مئَةٌ عَلَى ظُهُور الْخَيْل، وَبَيْنَ ثُلث عَدَدهمْ منْ رجَال أقَلَّ سلاحًا وأقَلَّ خبْرَةً فى الْقتَال.

كَانَ السِّلاحُ وَالْبَاطلُ فى جَانب.

والإيمَانُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْحَقُّ فى الجَانب الآخَر...

فأيُّهُمَا ينْتَصرُ؟

لَوْ أنَّ أحداً شَاهَدَ الْمَعْركَةَ - كَما شاهدْتُها أنا بئْرَ بدْر - لأحسَّ بالدَّهْشَة والذُّهُول...

فَإنَّ قَادةَ قُرَيْش وسادتَها وأشْجع رجالها، قَدْ بَدءُوا يتَراجَعُونَ بعْد أن ماتَ منهُمْ كَثيرُونَ، بيْنَهُمْ «أبُو جَهْل». واضطرَّ الْكُفَّارُ لأن يتْرُكُوا أرْضَ الْمعْركَة بالْقُرْب منِّى، بعْد أن تَرَكُوا سبْعينَ قَتيلاً، وعادُوا إلَى مكَّةَ بالْجرْحى والْجُنُود الْمهْزُومين أمام مُحمَّد وأصْحَابه.

ورَجَعَ الْمُسْلِمُونَ إلَى الْمَدِينَةِ غَانِمِينَ مُنْتَصِرِينَ، بَعْدَ أَن فَقَدُوا عِندى أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَهِيداً، أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وأَسَرُوا مِنَ الْكُفَّارِ سَبْعِينَ رَجُلاً. وكَانَ هَذَا النَّصْرُ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى.

واسْتَقْبَلَتِ الْمَدِينَةُ أَبْطَالَهَا الْمُنْتَصِرِينَ بِالْفَرْحَةِ الْكَبِيرَةِ، وآمَنَ بِالرَّسُولِ كَثِيرُونَ، بَعْدَ أن أدْرَكُوا أنَّ مَا حَدَثَ عِندى لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ إلا بِمَعُونَةِ اللهِ ومُسَاعَدَتِه.

وعَامَلَ الْمُسْلِمُونَ الأَسْرَى مُعَامَلَةً طَيِّبَةً. وأرَادَ هؤلاءِ الأَسْرَى أن يَعُودُوا إلَى أهْلِيهِمْ عَلَى أن يَدْفَعُوا فِدْيَةً مُقَابِلَ إطْلاقِ سَرَاحِهِمْ. ولكِنْ كَانَ مِنْ بَيْنِ الأَسْرَى مَنْ لا يَمْلِكُ نُقُوداً لِيَدْفَعَ الفِدْيَةَ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ: «تَسْتَطِيعُونَ أن تَعُودُوا إلَى أَهْلِيكُمْ، إذَا عَلَّمَ كُلُّ واحِدٍ مِنكُمْ عَشَرَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْقِرَاءَةَ والْكِتَابَةَ!!»..

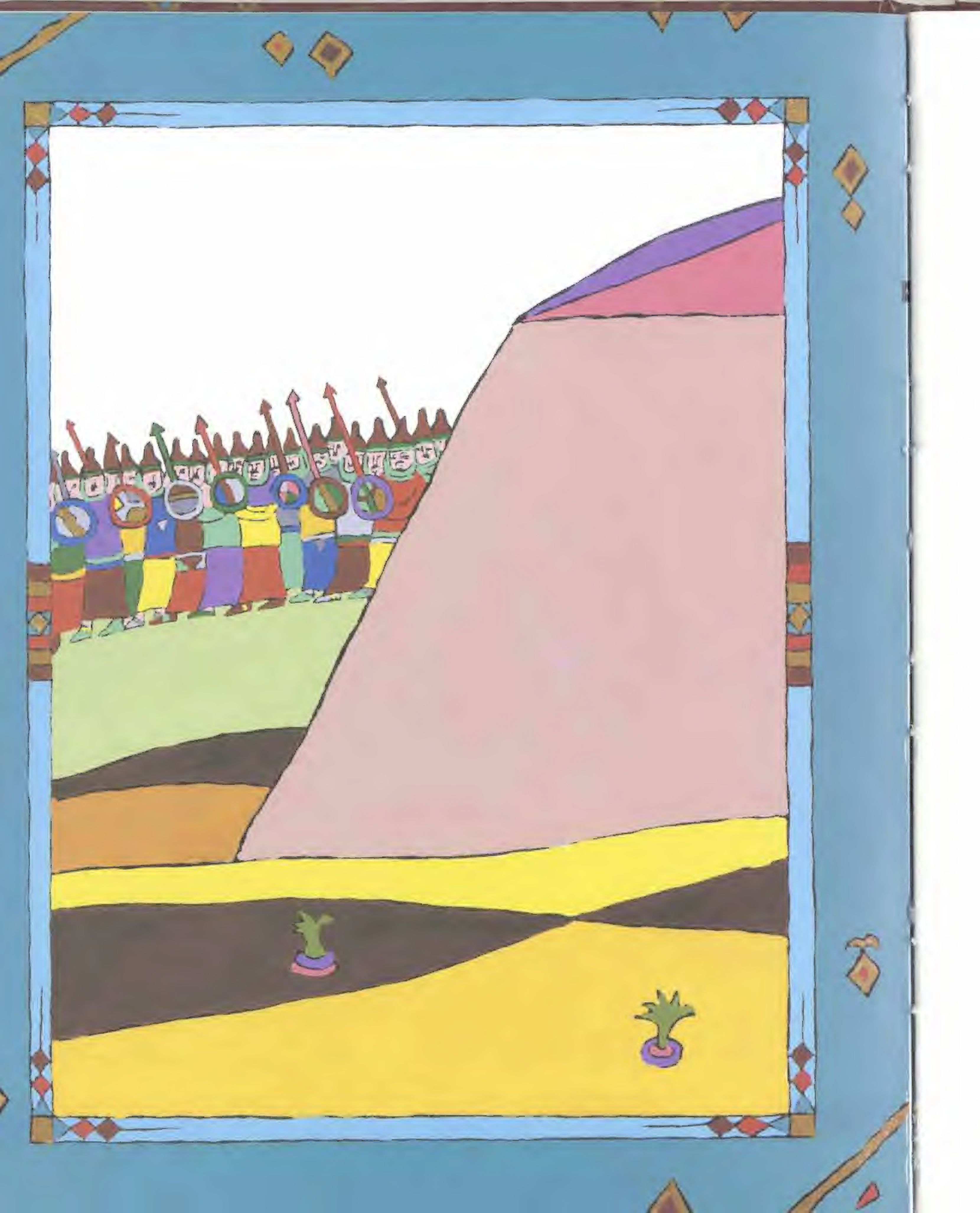
لَقَدْ كَانَ انتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عِندى، أوَّلَ نَصْرٍ أحْرَزُوهُ، وأوَّلَ خُطْوَةٍ عَلَى طَرِيقِ مِنَ الْمَعَارِكِ الَّتى كُتِبَ عَلَيْهِمْ أنْ يُقَاتِلُوا فِيهَا.. وكَانَ رَائِعًا أنْ يَجِيءَ ذِكْرِى فى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: أَنَا الْبِئْرُ الصَّغِيرَةُ، عَلَى الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ والْمَدِينَةِ، والَّتى كَانَ النَّاسُ يَقْصِدُونَهَا مِنْ أَجْلِ الْمَاءِ فَقَطْ. فَإذَا بِى أُصْبِحُ رَمْزًا لِمَعْرَكَةٍ رَائِعَةٍ بَيْنَ السِّلاحِ والْبَاطِلِ مِنْ جَانِبٍ، والإِيمَانِ والْحَقِّ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، فَيَنْتَصِرُ الْحَقُّ ويَنْهَزِمُ الْبَاطِلُ.. إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا.

﴿ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

صدق الله العظيم

أنا جَبَلٌ





اسْمِى «أحُد»، وأبْعُدُ عَنْ الْمَدِينَة خَمْسَةَ كِيلُو مِتْرَات.

فى الْعَامِ الثَّالث لِهِجْرَة الرَّسُول عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وَبَعْدَ عَامٍ كَامِل مِنْ مَعْرَكَةِ بدْر، رأَيْتُ جَيْش قُرَيْش يُعَسْكِرُ عِنْدِى. وكَانَ جَيْشًا كَبِيرًا، يَضُمُّ ثَلاثَةَ آلاف مِنَ الْمُقَاتِلِينَ.. ومائَتَيْن من الفُرسان.. وَمائَتَيْن مِنَ حَامِلِى الدُّرُوع.. وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ يُنْشِدْنَ ويُغَنِّينَ. وَرَأَيْت خَيْلَ قُرَيْش وَإِبلَهَا تَرْعَى فى حُقُول الْمَدِينَة.

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ فى أَلْف مُقَاتل.. وَفَارِسَيْن اثْنَيْن، وَمائَة من الْجُنُود لابسى الدُّرُوع.

وأَدْهَشَنى أنْ أرَى بَيْنَ الْمُسْلمِين صِبْيَانًا صغَارًا. وَهذَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، رَفَضَ الْمُسْلِمُونَ قَبُولَهُ فى الْجَيْش لِصِغَرِه، فَشَبَّ عَلَى أَطْرَاف أصَابعه لِيَبْدُوَ كَبِيرًا! وَهذَا صَبِىٌّ صَغِيرٌ آخَرُ تَحَدَّى أحَدَ الرجَال وَغَلَبَه.. فَقَبلوهُ، بَعْدَ أنْ رَفَضُوا قَبُولَهُ.

كَمَا أدْهَشَنى أنْ أرَى بَيْنَهُمْ شُيُوخًا كبَارًا تَخَطَّوْا سنَّ النِّضَال وَالْحَرْب، وَلَوْ قَعَدُوا فى بُيُوتهِمْ مَا لامَهُمْ أحَدٌ. ولكنَّهُمْ، وَقَدْ كَبِرُوا، يُرِيدُونَ أنْ يَسْتَشْهَدُوا وَهُمْ يُقَاتِلُونَ، فَيَمُوتُوا فى سَبِيلِ الله، وَيَضْمَنُوا الْجَنَّةَ.

وكَانَ عَدَدُ الْمُسْلمِينَ ثُلُثَ عَدَد الْكُفَّار. وَفجْأةً نَقصَ عَدَدُ الْمُسْلمِينَ ثَلاثَمائَة، فَقَدْ تَرَاجَعَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُنَافقِينَ وَمَعَهُ رجَالُهُ. ولَكنَّ الْمُسْلمِينَ لَمْ يَنْزَعجُوا لذلكَ.

وَقَد اتَّخَذَ النَّبىُّ مكَانًا عَاليًا ليُعَسْكِرَ فِيه رِجَالُهُ، فَيُشْرفَ عَلَى الْعَدُوِّ من مكَان مُرْتَفِع. وَوَقَفْتُ أنا - جَبَلَ أحُد - خَلْفَه أحْمى ظَهْرَهُ. وَخفْتُ ألا يَتَنَبَّهَ الْمُسْلمُونَ إلى وُجُود ممَرٍّ فى وَسَطى يُمْكِنُ أنْ يَنْفُذَ منْهُ

الأعْدَاءُ. لكنّى لَمْ ألْبَثْ أن اطْمأنَّ قَلْبى وَالرَّسُولُ يَجْعَلُ عَلَى حِرَاسَتِه خَمْسِينَ منَ الرُّمَاة. ويأمُرُهُمْ بألا يَتْرُكُوا أمَاكِنَهُمْ لأىِّ سَبَبٍ. سَوَاءٌ انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ عَلَى الْكُفَّار أوْ لَمْ يَنْتَصِرُوا يَجِبُ أنْ يَظَلُّوا فِى أمَاكِنِهِمْ حَتَّى النِّهَايَة.

وَبَدأت الْمُبَارَزَةُ كَالْعَادَة، وَخَرَجَ لَهَا حَمْزَةُ، فَقَتَلَ حَامِلَ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ بَدأت الْمَعْرَكَةُ. . وَرَأيْتُهَا أنَا جَبَلَ أحُدٍ، فِى ثَلاث صُوَرٍ:

الصُّورَةُ الأولَى . . .



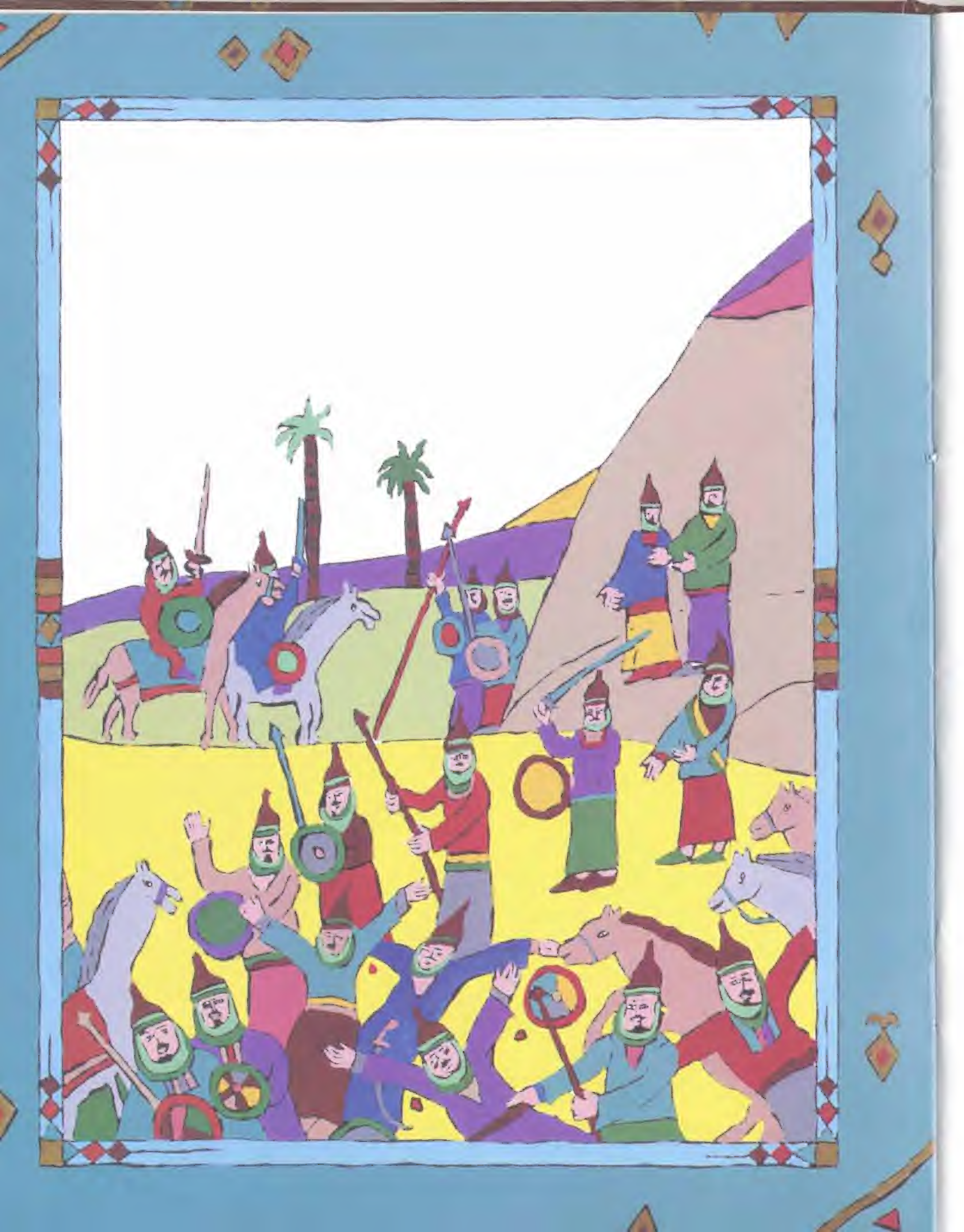
الْمُسْلِمُونَ الْبَاسِلُونَ يُحَارِبُونَ أعْدَاءَهُمْ فِى شَجَاعَة، وَيَهْجُمُونَ عَلَيْهِمْ فِى إقْدَامٍ وَبُطُولَة، وَقُرَيْشٌ تُقَاوِمُ، وَلكنَّهَا غَيْرُ قَادِرَةٍ عَلَى مُوَاجَهَةِ هذه الْقُلُوب الْمُؤمِنَةِ الْمُضَحِّيَة. وَقَدْ سَقَطَ مِنْ رِجَالِ قُرَيْش كَثِيرُونَ. حَتَّى إنَّ سَبْعَةً مِنْ حَامِلِى الْعَلَم قَتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَاحِداً بَعْدَ الآخَر. وَلَمْ تَجِدْ قُرَيْشٌ سَبِيلاً إلا الْهَرَبَ. وَلَمْ يَتْرُكْهُم مُحَمَّدٌ وأصْحَابُهُ بَلْ تَعَقَّبُوهُمْ، وَانْطَلَقُوا يُطَارِدُونَهُمْ، وَقَدْ ظَهَرَتْ أوْلَى تَبَاشِير النَّصْر.

ولمْ تَلْبثْ أن اخْتَفتْ من أمامى - أنا جَبَلَ أحُدٍ - هذه الصُّورَةُ الرّائعةُ، لكىْ تأتى من بَعْدها صُورَةٌ أخْرَى مُظْلمةٌ:

الصورةُ الثانيةُ . .

وَجَاءَتْ الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ . . فَحُمَاةُ الْمَمَرِّ الذى يَقَعُ فى وَسطى، أفْرَحَهُمْ وأغْرَاهُمْ النَّصْرُ، فَنَسُوا تَعْلِيمَات الرَّسُول لَهُمْ وَلَمْ يَبْقَوا فى أمَاكِنِهِمْ كَمَا أمَرَهُمْ وَقَدْ حَذَّرَهُمْ مِنْ أنْ يُغَادِرُوهَا: انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ أو انْهَزَمُوا. لَقَدْ خَالَفُوا أمْرَ النَّبىِّ. وأخَذَ عَدَدٌ مِنْهُمْ يَشْتَرِكُ فِى مُطَارَدَة الْهَارِبِينَ مِنْ قُرَيْش، لِكَىْ يَحْصُلُوا عَلَى الأسْرَى وَالْغَنَائِم.

وَكَانَ خَالدُ بْنُ الْوَلِيد - قَائِدُ فُرْسَانِ مَكَّةَ - يُرَاقِبُ مَا حَدَثَ. وَعِنْدَمَا رأى الْمَمَرَّ قَدْ تَرَكَهُ



حُرَّاسُهُ، دَارَ وَدَخَلَ مِنْهُ، وَطَوَّقَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ، وَهَاجَمَهُمْ بِعُنْفٍ. وأدْرَكَتْ قُرَيْشٌ هذَا فَعَادَتْ تَثْبُتُ، بَلْ صَارَتْ تُهَاجِمُ الْمُسْلِمِينَ وَتُوقِعُ بِهِمْ.

وكُنْتُ أنَا جَبَلَ أُحُد، أنْظُرُ إلَى مَا يَجرى، وأنَا أكَادُ أتَفَتَّتُ حُزْنًا وألَما. إنَّ إهْمَالاً صغيرا وَقَعَ مِنْ جَمَاعَةٍ قَلِيلَةٍ، كَادَ يُفْنِى الْجَيْشَ الْمُنْتَصِرَ.

ووَقَعَ النَّبِىُّ ﷺ فى حُفْرَةٍ، وَشَاعَ فِى النَّاسِ أنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ. وَظَنَّ الْكَافِرُونَ أنَّهُمْ قَدْ قَضَوْا عَلَى الإسْلام والْمُسْلِمِينَ . .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ . .

- ثُمَّ كَانَت الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ:

ارْتَفَعَ صوْتُ واحد من الْمسلمين: ماذَا نَصْنَعُ بالْحياة بعْد مُحمَّد؟ فَتَجمَّعَ الْمُسْلِمُونَ يلتَقِطُونَ أنفَاسهُمْ ويُعيدُونَ صُفُوفَهُم.

ثُمَّ ارْتَفَعَ صوْتٌ آخَرُ: رسُولُ الله بخَيْرٍ . .

فَامْتَلأت الْقُلُوبُ بالأمل، وواصل الْمُسْلِمُونَ الْقِتَال بعنَاد شَديد، وصعدُوا فَوْقى - أنَا جبل أحُد - حتَّى لا يلحق بهم الْكَافِرُونَ. وحاول رجالُ خالد بْن الْوليد أنْ يَتسلَّقُونى، ولكنَّ الْمُسْلمين رمَوْهُمْ بالْحجارة والنِّبال، فَاضطُرَّ خَالدٌ للهُبُوط. وقَامت قُرَيْشٌ بالْهُجُوم الْمرَّةَ بعْد الأخرى، ولكنها فَشلَت فى كُلِّ مرَّةٍ، وتأكَّدت أنَّ الْمُسْلمين أقوى منْ أن تَقْضى عليْهم، فَانسحبت بجيْشهَا، وأبُو سُفيانَ قَائدُهُم يُرَدِّدُ:

- يوْمٌ بيوْم بدْرٍ . . والْحرْبُ سجالٌ.

وانتَهت الْمعْرَكَةُ، ووقَفتُ - أنَا جبل أحُد - أتَطَلَّعُ إلَى ما حوْلى، وأشَاهدُ مسْرَحَ الأحْدَاث. كَانَت هُنَاكَ جُثَثُ الشُّهَدَاء، وبيْنَهُم حمْزَةُ

عَمُّ الرَّسُولِ ، وَقَدْ مَثَّلَت به قُرَيْشٌ أَبْشَعَ تَمْثِيلٍ . وكَانَ هُنَاكَ الْجَرْحَى وَالْمُصَابُونَ . وَرَأَيْتُ جَيْشَ قُرَيْش يَنسَحِبُ مِنَ الْمَيْدَانِ . . إِلَى أَيْنَ؟ هَلْ يَتَّجِهُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ؟ إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا مَفْتُوحَةٌ . . وَالْمُسْلِمُونَ مُجْتَمِعُونَ بِى . . يَا إِلهِى . . انتَظَرْتُ قَلِقًا . . ولكِنِّى تَنَفَّسْتُ الصُّعَدَاءَ، وأنا أراهم يَرْكَبُونَ الإبلَ وَيَنطَلِقُونَ إِلَى مَكَّةَ . . وَسَمِعْتُهُمْ يَتَسَاءَلُونَ :

هَل انتَصَرْنَا؟ . . لَيْسَ مَعَنَا غَنَائِمُ؟ وَلَمْ نُمْسِك بِأَسِيرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . أَيْنَ النَّصْرُ إِذَن؟! لِمَاذَا لَمْ نَسِرْ إِلَى الْمَدِينَةِ؟! . . لِنَعُدْ إِلَيْهَا . .

وَقَضَى الرَّسُولُ ﷺ وَجُنُودُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْلَتَهُمْ عِندِى - أَنَا جَبَلَ أُحُدٍ - وَفِى الْيَوْمِ التَّالِى ، أَذْهَلَنِى أَلا تَتَّجِهَ جُمُوعُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، بَلْ رَأَيْتُهَا تَنطَلِقُ وَرَاءَ جَيْشِ قُرَيْش لِتُطَارِدَهُ . وَعِندَمَا عَلِمَ أَبُو سُفْيَانَ بِذَلِكَ أَسْرَعَ بِرِجَالِهِ فِرَارًا ، خَشْيَةَ أَن يَلْحَقَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ .

وَعَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ وأَصْحَابُهُ ، وَمَرُّوا بِى فِى عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَطَلَّعُوا إِلَىَّ بِنَظَرَاتٍ فِيهَا شُكْرٌ وَامْتِنَانٌ ، فَقَدْ حَمَيْتُ ظُهُورَهُمْ حِينَ اشْتَدَّ بِهِم الْبَلاءُ . وَلَكِنِّى كُنتُ دَرْسًا لِلنَّاسِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ : أَنَّ النَّصْرَ يَحْتَاجُ إِلَى الْحِمَايَةِ الدائمَةِ . . كَمَا أَنَّ الْهَزِيمَةَ يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهَا بِالْعَزِيمَةِ الْقَوِيَّةِ الصَّادِقَةِ . لَقَدْ خَسِرَ الْمُسْلِمُونَ هذه الْمَعْرَكَةَ عَلَى طَرِيقِ النِّضَالِ ، وَلكِنَّ النَّصْرَ كَانَ لَهُمْ فِى النِّهَايَةِ .

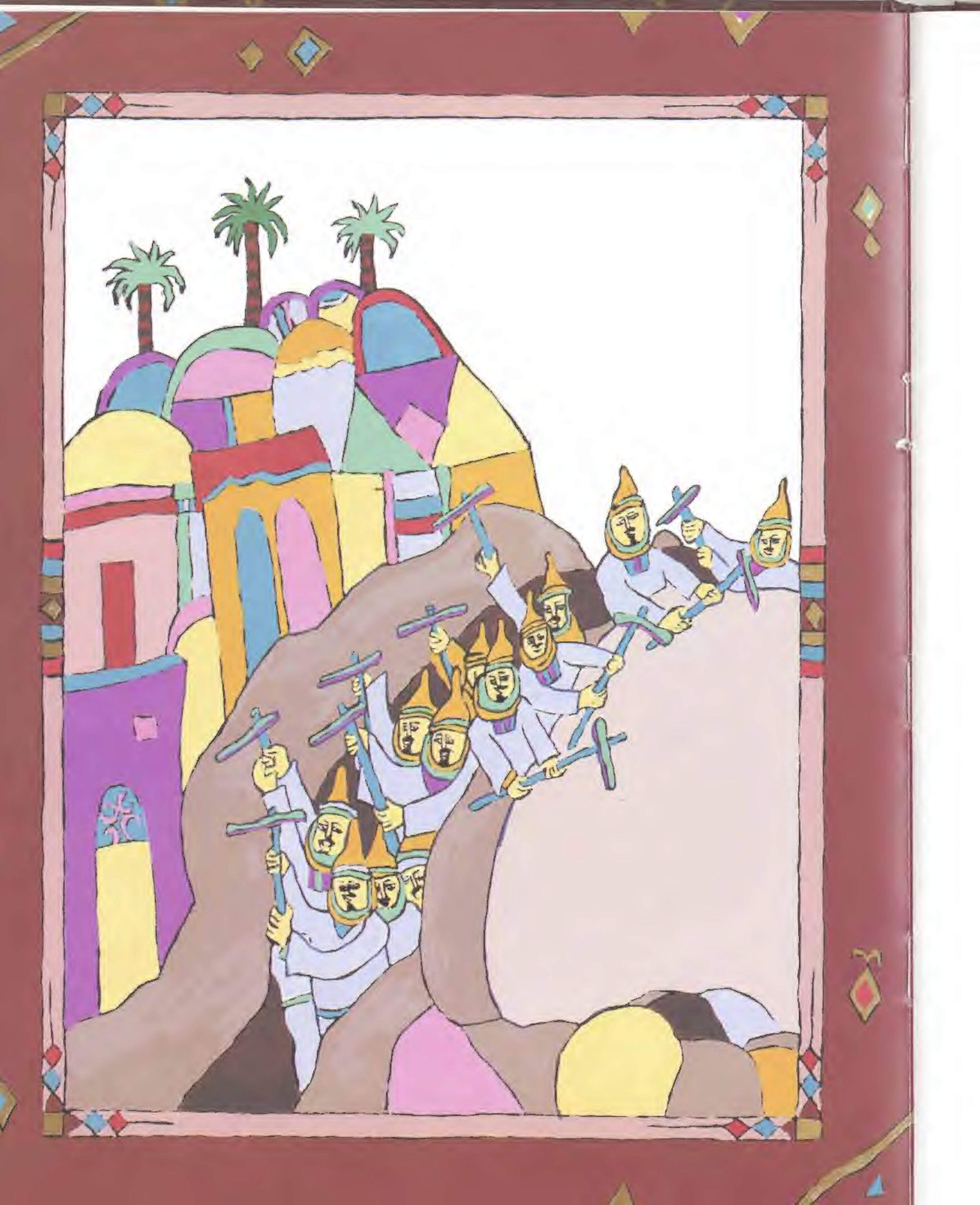
وَمَا زِلْتُ - أَنَا جَبَلَ أُحُدٍ - أَقِفُ قُرْبَ الْمَدِينَةِ ، أُذَكِّرُ النَّاسَ بِتِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْخَالِدَةِ .





أنا صَخْرَةٌ





وَالصَّخْرُ، كَمَا تَعْرِفُونَ، صُلْبٌ، قَوِيٌّ، لا يَلِينُ وَلا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْفُئُوسُ.

وُجِدْتُ فِي مَكَانٍ قُرْبَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. وَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ مَكَانِي هَذَا الْكَثِيرَ مِنْ أَحْدَاثِ الْمَدِينَةِ، بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ مَكَّةَ نَجَاةً بِدِينِ الله.

وَجَاءَتْنِي أَخْبَارُ «بَدْرٍ» وَأَخْبَارُ «أُحُدٍ». ثُمَّ جَاءَتْنِي أَخْبَارُ الْيَهُودِ وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْقَبَائِلِ يُثِيرُونَهَا ضِدَّ «مُحَمَّدٍ».

ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى قُرَيْشٍ يُبَشِّرُونَهَا بِمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ تَجْمِيعِ الْقَبَائِلِ وَتَأْلِيبِ الأَحْزَابِ كُلِّهَا ضِدَّ مُحَمَّدٍ.

وَيُبَلِّغُونَهَا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلا أَنْ تَنْضَمَّ قُرَيْشٌ مَعَ بَاقِي الْقَبَائِلِ، وَيَشْتَرِكَ الْجَمِيعُ فِي قِتَالِهِ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْقَضَاءُ النِّهَائِيُّ عَلَيْهِ وَعَلَى دِينِهِ.

وَنَجَحَ الْيَهُودُ فِعْلاً، بِالْخُبْثِ وَاللُّؤْمِ وَالْكَذِبِ، فِي تَجْمِيعِ الْعَرَبِ كُلِّهِمْ وَدَفْعِهِمْ إِلَى تَجْهِيزِ جُيُوشِهِمْ لِمُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ وَقِتَالِ مُحَمَّدٍ.

عَلِمَ مُحَمَّدٌ بِمَا دَبَّرَهُ الْيَهُودُ ضِدَّهُ، وَبَلَغَهُ أَخْبَارُ تَجْهِيزَاتِ الْجُيُوشِ لِتَنْقَضَّ جَمِيعًا عَلَيْهِ هُوَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ.

اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِيمَا يَصْنَعُ: هَلْ يَمْكُثُ فِي الْمَدِينَةِ، أَمْ يَخْرُجُ لِلِقَاءِ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْجَرَّارَةِ الْقَادِمَةِ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ:

- نَحْفِرُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ خَنْدَقًا. فَإِذَا جَاءَ عَدُوُّنَا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْبُرَهُ وَيَصِلَ إِلَيْنَا.

وَافَقَ الرَّسُولُ عَلَى رَأْيِ سَلْمَانَ. وَنَهَضَ وَمَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَبَدَءُوا يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ. وَقَدْ قَاسَى



الْمُسْلِمُونَ وَعَانَوا الْكَثِيرَ فى هذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ وَالْجَدِيدِ عَلَيْهِمْ. وكَانَ الرَّسُولُ يَحْفِرُ مَعَهُمْ، وَيَنقُلُ التُّرَابَ مِثلَهُمْ، وكَانَ التُّرَابُ يُوَارِى بَيَاضَ بَطنِه. وكَانَ وَهُوَ يَحْفِرُ، يُنشِدُ الأبْيَاتَ التَّالِيَةَ:

اللَّهُمَّ لَوْلا أنتَ مَا اهتَدَيْنَا — وَلا تَصَدَّقنَا ولا صَلَّيْنَا

فَأنزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا — وَثَبِّتِ الأقدَامَ إن لاقَيْنَا

وَالْمُشرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا — وَإن أرَادُوا فِتنَةً أبَيْنَا

وَتَمَّ حَفرُ الْخَنْدَقِ الْعَمِيقِ، وَلَمْ تَبْقَ إلا نَاحِيَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهِىَ النَّاحِيَةُ الَّتى أنَا فيهَا. وكَانَت مِنْ نَصِيبِ سَلمَانَ الْفَارِسِى وَمَجْمُوعَةَ مَعَهُ. وَلَقَدْ تَعِبَ سَلمَانُ وَهُوَ يُحَاوِلُ أنْ يَقتَلِعَنى فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَأنَا كَمَا قُلتُ صُلْبَةٌ وَعَنِيدَةٌ. فَأقبَلَ سلمَانُ عَلَى الرَّسُولِ شَاكِيًا وَالْعَرَقُ يَتَصَببُ مِنهُ. فَطَلَبَ النَّبِىُّ إنَاءً بِه مَاءٌ. أسْرَعَ سَلمَانُ وأحْضَرَهُ. أمْسَكَ رَسُولُ الله بالإنَاء وَصَبَّ مِنهُ الْمَاءَ فَوْقِى، ثُمَّ أخَذَ الْفأسَ مِنْ سَلْمَانَ، وَرَفَعَهَا مِنْ فَوْقِى وَهُوَ يَقُولُ: بِسْمِ الله.

ثُمَّ ضَرَبَنى ثَلاثَ ضَرَبَات. وفي كُلِّ ضَرْبَة، كَانَ بَرْقٌ يَلْمَعُ تَحْتَ الْفأسِ. وَبَعْدَ الضَّرْبَةِ الثَّالِثَة، انْهَرْتُ وَسَقَطْتُ. فَهَتَفَ الْمُسْلِمُونَ: اللهُ أكْبَرُ. . اللهُ أكْبَرُ. . اللهُ أكْبَرُ.

ثُمَّ قَدمت جُيُوشُ الْعَرَبِ، وكَانَ جَيْش قُرَيْش وَحْدَهَا عَشَرَةَ آلاف رَجُلٍ. وَوَقَفَت هذِه الْجُيُوشُ عِنْدَ الْخَنْدَقِ وَهِى مَذْهُولَةٌ مِنْهُ وَمِنْ فِكْرَتِه وَمَكِيدَتِه، فَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ قَد اسْتَعْمَلَتِ الْخَنَادِقَ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا.

وَخَرَجَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ فى ثَلاثَة آلاف مِنَ الْمُسْلمينَ . وكَانَ الْخَنْدَقُ فَاصلاً بَيْنَ الْجَانبَيْن . وأَقَامَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ حُرَّاساً عَلَيْه حَتَّى لا يَقْتَحمَهُ الْمُشْرِكُونَ بالليْل . وَقَدْ كَانَ يَقُومُ بِنَوْبَة فى الْحِرَاسَة لَيْلاً رَغْمَ شدَّة الْبَرْد .

وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ أمَامَ الْخَنْدَق ، وَحَاصَرُوا الْمُسْلمينَ ، وأخَذُوا يَرْشُقُونَهُمْ بِالنِّبَال وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلكَ عشْرين يَوْمًا . فَاشْتَدَّ الحَالُ بِالْمُسْلمينَ وصَاحَبَ هَذَا الحصارَ ضيقٌ عَلَى الفُقَرَاء .

وَزَادَ فى شدَّة الْحَال بهمْ ، مَا أقْدَمَ عَلَيْه يَهُودُ الْمَدينَة ، وكانَ الْمُسْلمُونَ قَدْ عَاهَدُوهُمْ وَاطْمأَنُّوا إلَى مُسَالَمَتهمْ . ولكنَّ الْيَهُودَ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَانْضَمُّوا إلَى الْمُشْرِكينَ ، وَاسْتَعَدُّوا لقتَال الْمُسْلمينَ مِنْ خَلْف ظُهُورهمْ .

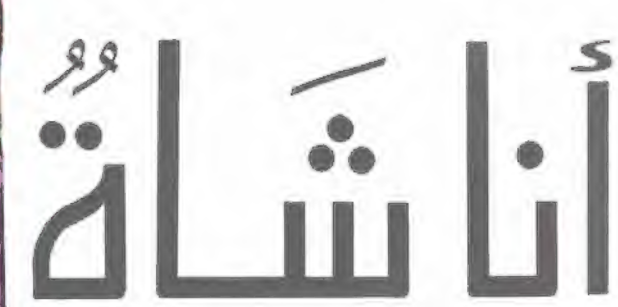
اشْتَدَّ الْبَلاءُ بِالْمُسْلمين ، فأعْداؤُهُم الَّذين هُمْ أكثَر عدداً وأشَدُّ بأساً منهُمْ ، قَدْ جاءُوهُمْ منْ خَلْفهمْ ومنْ أمامهمْ ، فَزَاغت الأبْصارُ وبلَغَت القُلُوبُ الحناجر وظَنُّوا بالله الظُّنُونَ . وتكَلَّم الْمُنَافقُونَ بما بدا لَهُمْ ، يُعيِّرُونَ الرَّسُول ويسْألُونَهُ عمَّا وعدهُمْ به منْ نَصْر الله لَهُمْ . والرَّسُولُ يُهادنُ بعْضَ القَبائل منْ نَاحية ، ويُثَبِّتُ الْمُسْلمينَ منْ نَاحية أخرى ، ويُؤكِّدُ لَهُم الْفوْزَ ويُبشِّرُهُمْ بالنَّصْر إذَا هُمْ صبرُوا وثَبَتُوا . وكان ﷺ يبْتَهلُ إلَى الله ويدْعُوهُ فى حرارة : «اللَّهُمَّ مُنْزلَ الْكتَاب سريعَ الْحساب اهزم الأحْزَاب . اللَّهُمَّ اهزمْهُمْ وانصُرْنَا علَيْهِمْ» .

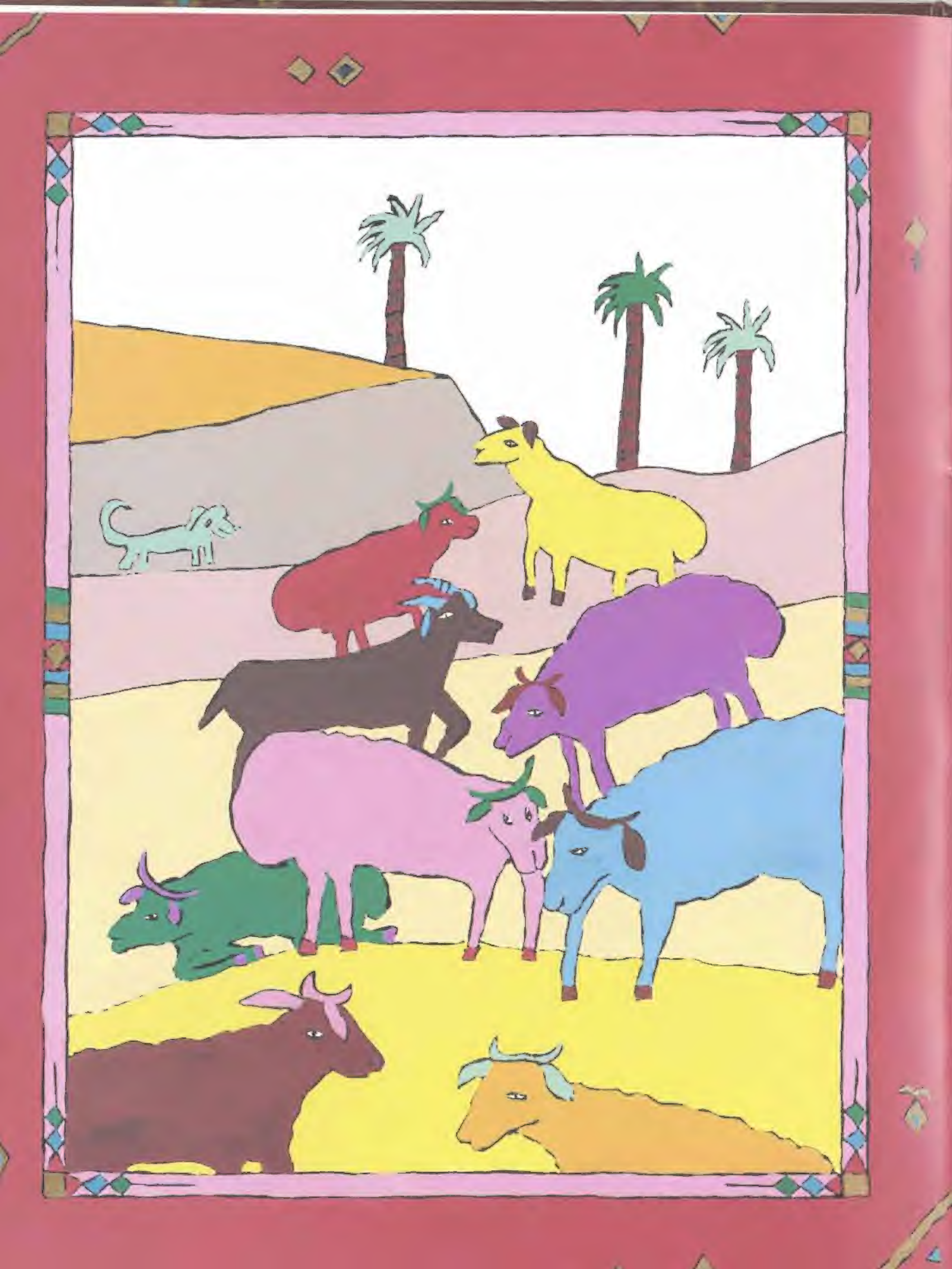
ويتَوالَى نَصْرُ الله . فَينجحُ الْمُسْلمُونَ فى أن يُوقعُوا الشِّقَاقَ بَيْنَ اليهود وبيْن قُرَيْش فَيشُكَّ كُلٌّ منهُما فى الآخَر فَينْقُضَان ما بيْنَهُما منْ عهد ، ويعْتَبرُ كُلٌّ منهُما أنَّ الْمَعْرَكَةَ معْرَكَةُ الآخر ولَيْست معْركَتَهُ هُو ، وينْسحبُ منْهَا ويتْرُكُ الآخَر وحْدَهُ أمام الْمُسْلمين .

ويُتمُّ اللهُ نعْمَتَهُ . فَتَهُبُّ رياحٌ باردَةٌ فى شكْل عاصفَة شَديدة ، فى لَيْلَة حالكَة السَّواد ، وتَقْتَلعُ خيام الْكُفَّار ، وتُطْفئُ نيرانَهُمْ ، وتُطيرُ منْ فَوْقها قُدُورَهُمْ . فَيدبُّ الْفَزَعُ فى قُلُوبهمْ ويسْتَولى الْهَلَعُ علَى نُفُوسهمْ . ويأْمُرُهُمْ قَائدُهُمْ أبُو سُفْيانَ بالرَّحيل . . ويرْحلُونَ فى الْحَال !









كُنْتُ أعيشُ مع زَوْجِي الْكَبْشِ وبقيَّةِ الْغَنَمِ، فِي صحراءَ واسعَة، تُغَطِّي أرْضَهَا الرِّمَالُ الصَّفْرَاءُ . . وكَانَ الرَّاعِي يَتَنَقَّلُ بنا، لِيَبْحَثَ عَنْ آبَارِ الْمِيَاهِ وَالْعُشْبِ الأخْضَرِ.

وَلَقَدْ رَحَلْنَا هُنَا وَهُنَاكَ، لِنَجِدَ الْمَاءَ وَالطَّعَامَ.

وكَانَت الأغْنَامُ تَقْضِي وَقْتَهَا في اللَّهْوِ وَاللَّعِب، وفي الاسْتِمَاعِ إلَى صَوْت «النَّاي» بَيْنَ أصَابعِ الرَّاعِي، أوْ إلَى حَدِيثِهِ الْمُمْتِعِ عَنْ أخْبَارِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَحْيَا فِيهَا. وكَانَ حَدِيثُهُ عَنِ الرَّاعِي «مُحَمَّد» أجْمَلَ مَا نَسْمَعُهُ؛ فَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ رَاعِيًا في صِبَاهُ، يَرْعَى الْغَنَمَ والإبلَ في الصَّحْرَاء.

وَلَمْ نَكُنْ نَشْبَعُ أبَدًا منَ الْحَدِيث عَنْ «مُحَمَّد» وعَنْ طِيبَته وإنْسَانِيَّتِه وأمَانَته. وكُنَّا نُحِبُّهُ كثيرًا لأنَّهُ كان يُحِبُّ الْغَنمَ عنْدَمَا كان يَرْعَاهَا. كان يَحْنُو عَلَيْهَا، وَيُتْعِبُ نَفْسَهُ من أجْلِها، ويُفَتِّشُ لَهَا عن الطَّعَامِ الَّذِي يَكْفِيهَا، ولا يَنْسَى أنْ يَمُرَّ بِها عَلَى الْبِئْرِ لِيَسْقِيَهَا. لَمْ يَكُنْ يَلْعَبُ وَيَلْهُو مثْلَ بَاقِي الرُّعَاة، بلْ كانَتْ عَيْنَاهُ دَائمًا أبَدًا عَلَى الْغَنَمِ، فَلا يَجْرُؤُ ذِئْبٌ أوْ ثَعْلَبٌ عَلَى الاقْتِرَاب منْهَا. وَعنْدَمَا يتعَب وَاحدٌ منْهَا كَانَ يَعْتَنِي به، وَيُسَاعِدُهُ عَلَى السَّيْرِ، وَقَدْ يَحْمِلُهُ إذَا مَرِضَ، وَيُعَالِجُهُ حَتَّى يُشْفَى، وتَعُودَ إلَيْه صِحَّتُهُ وعَافِيَتُهُ، وَيَجْرِي وَيَقْفِزَ فَرِحًا سَعِيدًا.

كَانَ «مُحَمَّدٌ» مُبَارَكًا وَمَيْمُونًا . . لَمْ تَرْجِعِ الأغْنَامُ الَّتِي يَرْعَاهَا قطُّ جَائعَةً. فَقَدْ كَانَ يَجِدُ لَهَا دَائمًا مَا تأكُلُهُ وَمَا تَشْرَبُهُ. وكَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُبَارِكُ فِيهَا، فَتَتَحَسَّنُ صِحَّتُهَا وَيَكْثُرُ لَبَنُهَا وَيَزِيدُ لَحْمُهَا.

من هَذَا كُلِّه . . أحْبَبْنَا محمدًا حبًا كثيرًا . .

وكُنَّا نَسْمَعُ عَنْ دِينهِ الْجَدِيد . . وأنَّ اللهَ بَعَثَهُ نَبِيًا وَرَسُولاً لِيَهْدِيَ النَّاسَ وَيَدْعُوَهُمْ إلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ . . فَعَارَضَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَسَخِرُوا منْهُ وآذَوْهُ.

وكَذَلكَ الْيَهُودُ خَافُوا عَلَى دينهمْ، وَخَافُوا عَلَى أمْوَالهمْ وَخَافُوا عَلَى وَضْعهمْ وَعَلَى مُسْتَقْبَلهم بَيْنَ الْعرب . . فأخَذُوا يُؤَلِّبُونَ النَّاس علَيْه فــى السِّــرِّ، ويكيدُونَ لَهُ بالْخُبْث واللُّؤْم، ويتآمــرون عليـه فــى الخَفَاء.

كُنَّا ـ نَحْنُ الْغَنَم ـ نَدْعُــو اللهَ أَنْ يُنَجّيَهُ مِنْ شَرِّ أعْدائه جميعًا . . ويَنْصُرُهُ علَيْهِمْ . . فَهُــو الصَّادقُ الأمِــينُ . .



لذلكَ كَانَتْ فَرْحتى لا تُقَدَّرُ، عِنْدما عُــدْتُ يوْمًا من الْمَرْعَى، وعرفْتُ أنَّ صاحبتى الْيهُودِيَّةَ ستُقَدِّمُنى إلَى مُحمَّد!

ولكنِّى لَمْ ألْبثْ أنْ فكَّرْتُ قَليلاً، وساءَلْتُ نَفْسى:

ـ هَلْ هَذَا معْقُولٌ؟! صاحبتى يهُودِيَّةٌ، وَهِيَ لا تُحِبُّ مُحَمَّدًا بلْ تكْرَهُهُ وتَحْقِدُ علَيْه، فَلماذَا تُقَدِّمُنى إلَيْه؟! لا شكَّ فى أنَّهَا تُدبِّرُ فى نَفْسهَا أمْرًا ضِدَّهُ . .

وهُنَا ارْتَعشْتُ من الْخَوْف علَيْه.

أوْقَدتِ صَاحِبَتِى النَّار، وجاءَ الْجزَّارُ، وبعْد قَليلٍ ارْتَفَعت مِنِّى رائحَةُ الشِّواء . . وَفَجْأةً وَضَعَتْ فى جسْمى «شيْئًا» . . وأحْسَسْتُ بالألَم، فَقَدْ عَرَفْتُ بَعْــدَ قَليلٍ أنَّ هــذَا الشَّىءَ «سُمٌّ»، وأصْبَحْتُ مَسْمُومَةً، إذَا أكَــلَ أحَــدٌ منِّى قطْعَةً كَانَتْ فيهَا نهَايَةُ حيَاته . .

ولَمْ تُوجعْنى النَّارُ كمَا أوْجَعَنى هَذَا السُّمُّ الَّذى يَســرى فى جِســمى، والَّذى تُريدُ هذه الْمَــرْأةُ الْخَبيثَةُ أنْ يَسْرِىَ فى جسْمِ «مُحَمَّد» عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. وكَــانَ مَصْدَرُ حُزْنِى وألَمــى أنِّى لَنْ أسْتَطيعَ أنْ أنْقِــذَ الرَّسُولَ وأصْحَابَهُ، بَــلْ سأكُونُ أنَا السَّبَبَ فى قَتْلهِــمْ . .

وكُنْــتُ أفكِّرُ فى طَرِيقَــة لِتَــحْــذِيرِ الْمُسلمِينَ مِــنْ لَحْمى.

أخَذَتْنى صَاحبَتى، وَقَدَّمَتْنى للنَّبِىِّ وأصْحَابِه وَمَنْ بيْنَهمْ رجُلٌ اسْمُهُ «بِشْرٌ» وكَانَ جَائعًا،



فَمَدَّ يَدَهُ قَبْلَ «مُحَمَّد» وَبَدأ يَقْطَعُ مِنْ لَحْمِى وَيأكُلُ، وَأنَا أرِيدُ أنْ أقُولَ لَهُ: لِمَاذَا يَا بِشْرُ؟ لِمَاذَا تأكُلُ قَبْلَ الرَّسُولِ؟ . . ولَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمْكِنِ لِبِشْرٍ أنْ يَسْمَعَنى.

عِنْدَمَا بَدأ النَّبِىُّ يأكُلُ مِنِّى، صَرَخْتُ: أنَا مَسْمُومَةٌ . . أنَا مَسْمُومَةٌ . . أنَا مَسْمُومَةٌ.

وكَانَتْ مُفَاجَأةً رَائِعَةً لِى أنْ تَوَقَّفَتْ يَدُ «مُحَمَّد» عَنِّى، كَأنَّمَا سَمِعَنى. ولَمْ أكُنْ أنْتَظِرُ هذَا، وَلكِنَّ الأمْرَ كَانَ وَاضِحًا . . إنَّ اللهَ مَعَهُ . . لَقَدْ أسْمَعَهُ كَلِمَاتِى، لِذَلِكَ دُهِشَ أصْحَابُهُ وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ:

- ارْفَعُوا أيْدِيكُمْ عَنِ اللَّحْمِ . . إنَّهُ مَسْمُومٌ.

وَاسْتَجَابُوا جَمِيعا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ فَكَفُّوا عَنِ الأكْلِ. وَاحِد فَقَطْ كَانَ قَدْ أكَلَ، وَهُوَ بِشْرٌ. مِسْكِينٌ بِشْرٌ، لَقَدْ تَألَّمَ كَثِيرا، وَلَمْ يَعِشْ طَوِيلا بَعْدَ أنْ أكَلَ مِنْ لَحْمِى الْمَسْمُومِ. وَحَزِنَ عَلَيْهِ النَّبِىُّ، وَتَألَّمَ لِتَصَرُّفِ هذه الْمَرْأةِ الْخَبِيثَة، فَبَعَثَ إلَيْهَا يَسْألُهَا:

- لِمَاذَا فَعَلْتِ هذا؟

رَدَّتْ الْمَرْأةُ قَائلة:

- أحْبَبْتُ أنْ أعْرِف، هَلْ أنْتَ نَبِىٌّ بِحَقٍّ؟ . . لَوْ أنَّكَ نَبِىٌّ بِحَقٍّ لَمَا أصَابَكَ السُّمُّ، وَإذا كُنْتَ رَجُلا تُرِيدُ أنْ تُصْبِحَ مَلِكا، أرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ . .

وَقَدْ ثَبَتَ لِهَذِه الْمَرْأةِ أنَّ مُحَمَّدًا نَبِىٌّ وَرَسُولٌ . . فَهَلْ آمَنَتْ بِهِ ؟ . . كلا!

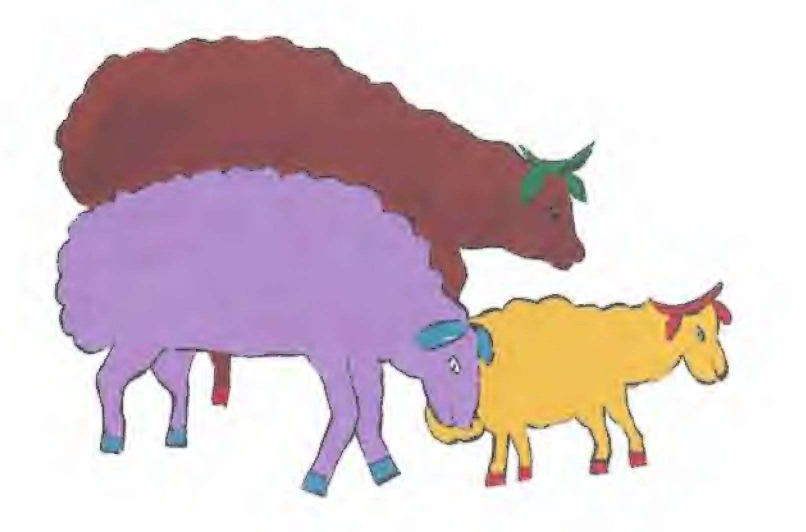
وَعِنْدَمَا دَفَنُونِى فِى الرِّمَالِ، شَعَرْتُ بِالرَّاحَةِ لأنَّنِى أدَّيْتُ الْوَاجِبَ عَلَىَّ. وَبَعْدَ أيَّام دُفِنَت بِجَانِبِى هذه الْمَرْأةُ الْخَبِيثَةُ لِيَرْتَاحَ النَّاسُ مِنْهَا وَمِنْ أعْمَالِهَا . .

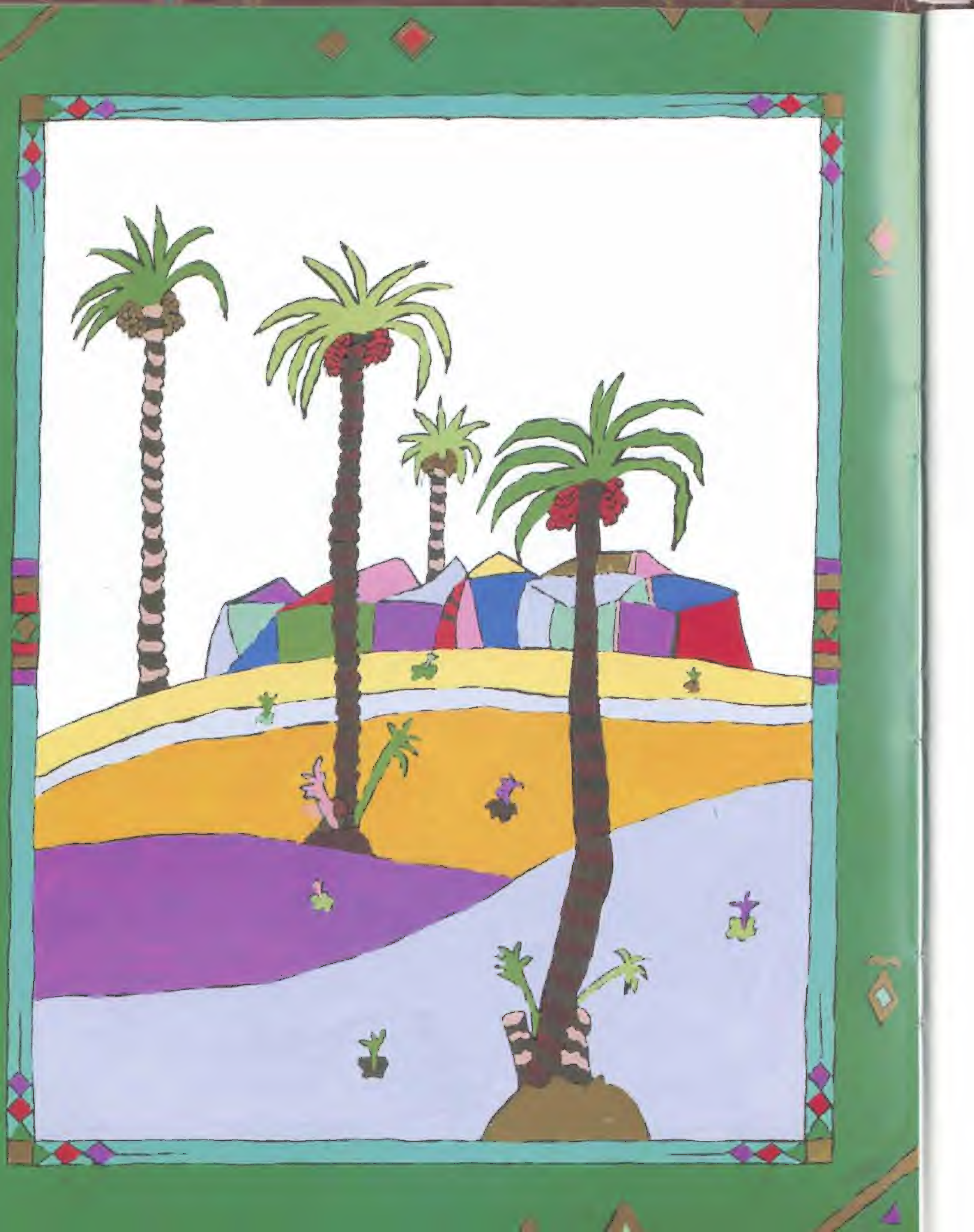
وَرُبَّمَا أكُونُ أوَّلَ شَاة فِى التَّارِيخِ تَتَكَلَّمُ بَعْدَ أنْ ذُبِحَتْ وَشُوِيَتْ، وَتَجِدُ مَنْ يَسْمَعُهَا . . سَوْفَ يَحْكِى النَّاسُ حِكَايَتِى، وَيَذْكُرُونَ مَعَهَا مَا حَاوَلَتْ صَاحِبَتِى أنْ تَفْعَلَهُ بِالرَّسُولِ الأمِين.





أنا جِذْعٌ

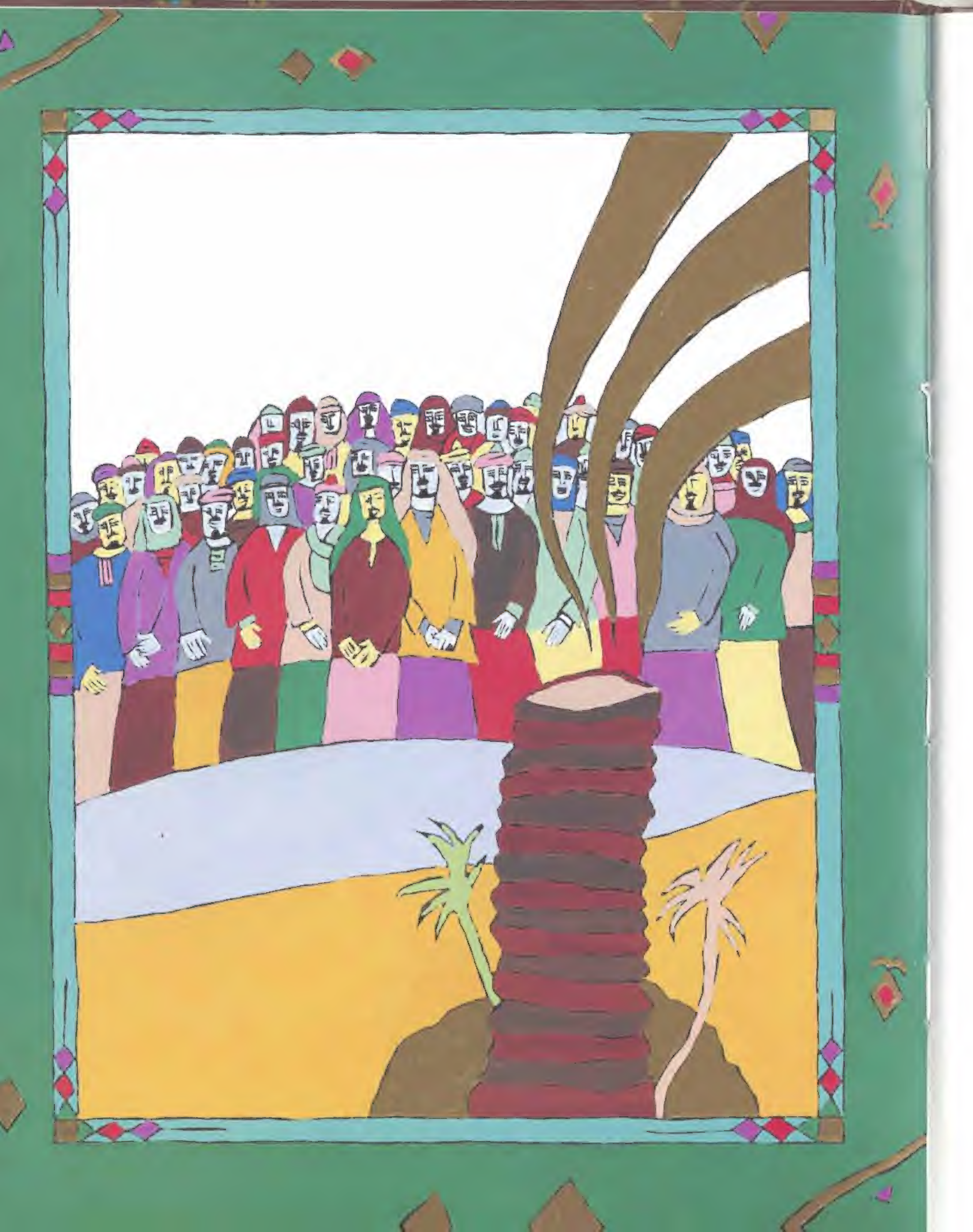




كُنْتُ نَخْلَةً فى الْمَاضى، وَ النَّخْلُ فى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَثِيرٌ. وَثَمَرُهُ حُلْو. والرعَاة يَسْتَظِلُّونَ به منْ حَرَارَةِ الشَّمْس. ولَقَدْ جَلَسَ تَحْتَ ظلالى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْد الله، وَهُوَ صَبىٌّ صَغيرٌ، يَرْعَى الْغَنَمَ.. وكَانَ عَاقلا طَيِّبا مُهَذَّبًا. وكَثيرًا مَا كَانَ الأَطْفَالُ والصبْيَانَ يَتجَمَّعُونَ تَحْتى وَهُوَ بَيْنَهُمْ يَتحَدَّث حَديثا هادئا عَذْبًا.

وكبرَ «مُحَمَّدٌ» وَظلَّ يَتَّخذُ منِّى مَجْلسًا لهُ. وعِنْدى بَدأ يَجْلسُ مَعَ عَدَد قَليل منْ أصْحَابه، يُحَدِّثُهُمْ عَن الدِّين الْجَديد: الإسْلام، ويَشْرَحُ لَهُمْ آيَات الْقُرآن الْكَرِيمِ الَّتى أنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْه، وأنَا وَهمْ نَسْتَمعُ إلَيْه فى حُب كَبير. وإذَا مَا حَانَ وَقْت الصَّلاة وَقَفَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَهُمْ منْ وَرَائه يُصَلُّونَ لله، ويَدْعُونَ أنْ يَزيدَ اللهُ منْ عَدَد الْمُسْلمينَ ويُضَاعفَ المؤْمنينَ، وأنْ يَهْدىَ أهْلَهُ للْخَيْر، ويُسَاعدَهمْ لكَىْ يَخْتَارُوا طَريقَ النُّور والْهدَايَة، ويَعْبُدُوا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَدَلاً منَ الأصْنَامِ الَّتى لا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ. وعنْدَمَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَصُومُ، كَانَ يُفْطرُ منْ بَلَحى هوَ وبَقيَّةُ الصَّائمينَ. وكَانَ عَددُ الْمُسْلمينَ فى ذَلكَ الْوَقْت قَليلاً. وكَانَ ظلِّى يكْفيهمْ، وتَمْرى يُشْبعُهُمْ.

وكُنْتُ كُلَّمَا كَبرْتُ في السِّنِّ، زَادَ عَدَدُهُمْ، إذْ إنَّ كَثيرينَ دَخَلُوا فى دين الله. وعنْدَمَا أصْبَحْتُ نَخْلَةً عَجُوزًا، لا أعْطى بَلَحًا، وَجَفَّ سَعَفى الأخْضَرُ، قَطَعُونى ليَسْتَفيدُوا منْ سَاقى الطَّويلَة، ولَيَصْنَعُوا به سَقْفًا لبَيْت منْ بُيُوتهمْ. وقَدْ تَركُونى بَعْدَ ذَلكَ مُجَرَّدَ «جذْع» صَغير ثَابت، مُرْتَفع قَليلاً عَن الأرْض.



قُلْتُ لكُمْ إنَّ الرَّسُول كَانَ يَجلس بيْنَ الْمُسْلمينَ فى أوَّل الأمْر، يُحَدِّثُهُمْ عَنْ أمُور دينهمْ. وَعنْدمَا زَادَ عَددُهُمْ قَليلاً، كَانَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يَقفُ لكَىْ يرَوْهُ جَميعًا. وَعنْدمَا زادُوا أكْثَر، تَلَفَّتَ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ إلَىَّ، وَوَقَفَ منْ فَوْقى، ليَتكَلَّمَ وَيَخْطُبَ وَيَهْدىَ سَامعيه للْخَيْر، وكُنْتُ أحسُّ بالْبشْر وَالسَّعادَة يَمْلآن وُجُوهَ الْمُسْلمينَ وَهُمْ يَنْصتُونَ إلَى حَديث النَّبىِّ. وكُنْتُ أرَى الدُّمُوعَ فى عُيُونهمْ، عنْدَمَا يُنْصتُونَ إلَيْه وَهُوَ يَتْلُو آيات منَ الْقُرآن الْكَريم.

وَلَقدْ شَعَرْتُ أنَا الْجذْع، بسَعَادَة كَبيرَة بوقْفَة الرَّسُول عَلَىَّ لكَىْ يَخْطُبَ فى الْمُسْلمينَ، بصَوْت أعْلَى، ولعَدَد أكْبرَ. وَشَعرْت بأنَّ الله قَدْ عَوَّضَنى خَيْرًا عَنْ فقْدان سَاقى وَرأسى. حقّا لَقَد أصْبَحْتُ مُجرَّدَ «جذْع» ولكنّ لى مكَانَةً كَبيرَةً، وَمَرْكَزًا مُمْتَازًا. كُلُّ الْمُسْلمين يَقْتَربُونَ منِّى، وَيلْتَفُّونَ حَوْلى، وأنْظَارُهُم تَتَّجهُ إلَىَّ. وأحْسَسْتُ بالْفَرَح وَالْفَخْر، لمُسَاهمَتى بوُجُودى فى صَالح الْمُسْلمينَ. إنَّهَا مُسَاهَمَةٌ بَسيطَةٌ صَغيرَةٌ، وَلَكنَّ هذَا هُوَ كُلُّ مَا أقْدرُ عَلَيْه. وَلَوْ أنَّ كُلَّ وَاحد قَدَّمَ شَيْئًا بَسيطًا، لتَجمَّعَ فى النِّهَايَة الشَّىْءُ الْكَبيرُ.

وكَانَتْ فرْحَتى تَزيدُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْم لزيَادَة عَدَد الْمسْلمينَ، لأنِّى رأيْتُهمْ يكْثُرونَ. ولمْ أكُنْ أعْرفُ أنّ هذه هىَ النِّهايَةُ لى.

لقَدْ زادَ عَددُ المسلمين لدَرَجَة أن امْتلأت بهم السَّاحَةُ، وَاضْطُرَّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ إلَى أنْ يَقفَ فَوْقَ منْبَر عَال، لكَىْ تَرَاهُ الْجُمُوعُ الْكَبيرَةُ الْمُحْتَشدَةُ وَتَسْمَعَهُ. وَعَلَى قَدْر مَا فَرحْتُ بزيَادَة عَدَد الْمُسْلمينَ، تألَّمْتُ لأنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَعُدْ يَقفُ عَلَىَّ.

وَلَمْ أسْتَطعْ أنْ أخْفىَ حُزْنى وأكْتمَ ألَمى، وَحَاوَلْتُ الْكَلامَ. وَهُوَ شَىْءٌ لَيْسَ سَهْلاً بالنِّسْبَة لى، وَلا يُمْكنُ لأحَد أنْ يُصَدِّقَ. وَمَعَ ذَلكَ فَلَمْ أسْتَطعْ أنْ أمْنَعَ نَفْسى منْ أنْ أحنَّ إلَى رَسُول الله، وأحنَّ لوقْفَته، وأحنَّ لطَلْعَته، وأحنَّ لكَلمَته، وَوَجَدْتُنى أقُولُ:

ـ آه . . آه . . آه . .

وَيَبْدُو أنِّى تَلَفَّتُّ نَاحِيَةَ الرَّسُولِ ، وأنِّى رَفَعْتُ صَوْتِى لِدَرَجَةِ أنَّ عَدَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَمِعُونِى وَلاحَظُوا حُزْنِى وأسَفِى وألَمِى . وَلَمْ يَكُنْ بِوُدِّى أنْ أسْكُتَ . وَلَسْتُ أشُكُّ فِى أنِّى أوَّلُ جِذْعِ نَخْلَةٍ وَآخِرُ جِذْعِ نَخْلَةٍ يَنْطِقُ ، وَيحِنُّ ، وَيَتَأوَّهُ . وكُلُّ ذلكَ لأنِّى كُنْتُ أحِسُّ بِالرَّسُولِ وَعَظَمَتِهِ ، وكَانَ بِوُدِّى أنْ أقُومَ بِدَوْرٍ صَغِيرٍ ، لِذَلِكَ ظَلَلْتُ أقُولُ : آه . . آه . . آه . . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُمْكِنِ أنْ أسْكُتَ أوْ أمْنَعَ نَفْسِى .

وَرَآنِى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، فَاتَّجَهَ نَاحِيَتِى ، وَفَرِحْتُ . . فَرِحْتُ كَثِيرًا لأنَّهُ أحَسَّ بِوُجُودِى ، وَسَمِعَ حَنِينِى إلَيْهِ وكِدْتُ أطِيرُ مِنْ السَّعَادَةِ ، وَهُوَ يُهَدِّئُ مِنْ حُزْنِى ، وَيَمُرُّ بِيَدِهِ الطَّاهِرَةِ مِنْ فَوْقِى بِكُلِّ حَنَانٍ . وَهَدَأتُ ، وَسَكَتُّ ، وَاسْتَرَحْتُ .

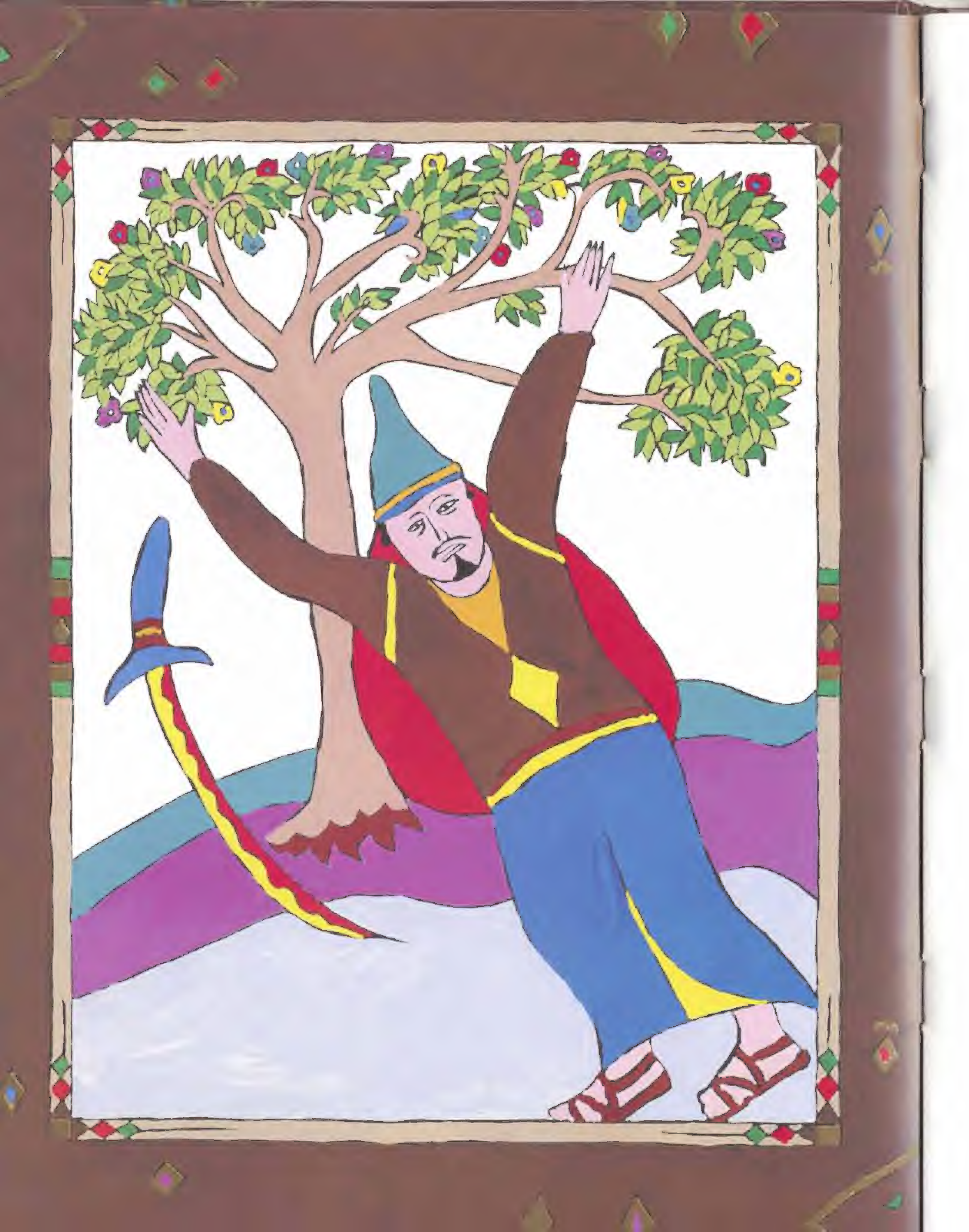
لَقَدْ عَبَّرْتُ لِلنَّبِىِّ عَنْ إحْسَاسِى ، وَعَرَفَ الأمْرَ كُلَّهُ ، وكَانَ هذا يَكْفِينِى . وَيَكْفِى أنَّ الدَّعْوَةَ الَّتِى كَانَ يُنَادِى بِهَا تَحْتَ ظِلالِى ، ثُمَّ مِنْ فَوْقِى ، قَدْ انْتَشَرَتْ ، وَآمَنَ بِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ ، وأصْبَحَ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أنْ يَسْمَعُوا إلا مِنْ فَوْقِ مِنْبَرٍ مُرْتَفِعٍ .

وَمَعَ الأيَّامِ ، كَثُرَتِ الْمَنَابِرُ ، وأصْبَحَت فِى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ دُنْيَا الْمُسْلِمِينَ ، وَعَمَّتِ الدَّعْوَةُ بِلادًا كَثِيرَةً . وَآمَنَ بِهَا مَلايِينُ النَّاسِ ، وأضَاءَتْ نُفُوسَهُمْ بِالإيمَانِ ، وَمَلأَتْ قُلُوبَهُمْ بِالنُّورِ .



أنا شَجَرَةٌ





وَالأَشجَارُ فى جزيرةِ العَرَبِ قَلِيلَةٌ. وَمَعَ ذَلِكَ فَلَنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ مَوَاقِفُ وَذِكرَيَاتٌ لا تُنسَى فَلا يَنسَى التَّارِيخُ مَوْقِفًا شُجَاعًا لِلرَّسُولِ الشُّجَاعِ الْكَرِيمِ تَحْتَ أختٍ لى قَبْلى. خَرَجَ عَلَيْهِ السَّلامُ ذَاتَ يَوْمٍ لِيَسْتَطلِعَ أخبَارَ الْكُفَّارِ الْقَادِمِينَ لِمُحَارَبَتِه. وَوَجد الشَّجرةَ أختى، فَرأى أن يستَنِد إلَيْهَا ويستَظِلَّ بِهَا. وفَاجأَهُ واحدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، وكَانَ يَحْمِلُ سَيْفًا، وَقَالَ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ:

- مَنْ يَسْتَطِيعُ أن يُنقذكَ الآنَ مِنْ يَدِى؟

لَمْ يَهتَزَّ الرَّسُولُ ولَمْ يَخَفْ، بَلْ أجَابَ فى هُدُوءٍ وَثَبَاتٍ: اللهُ.

اضْطَرَبَ الرَّجُلُ وَخَافَ وَارْتَعَشَ، وَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِه. فَأخَذَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَسَألَ الرَّجُلَ نَفْسَ السُّؤَالِ:

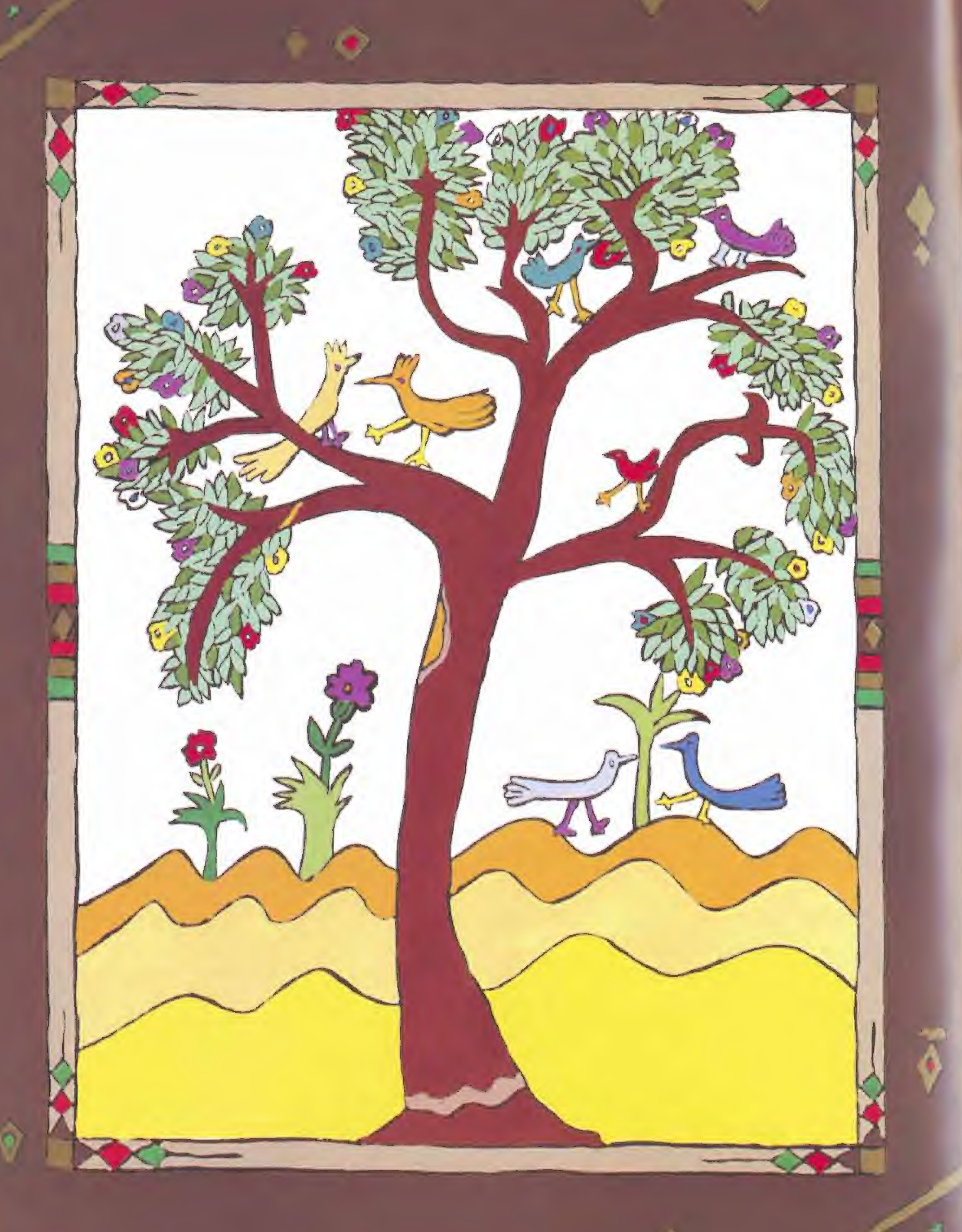
- مَنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يُنقذكَ الآنَ مِنْ يَدِى؟

لَمْ يَجِدِ الرَّجُلُ مَا يُجِيبُ بِه، بَلْ زَادَ خَوفُهُ واضْطِرَابُهُ.. فَعَفَا عَنْهُ الرَّسُولُ الشُّجَاعُ الْكَرِيمُ.

أمَّا قِصَّتى أنَا مَعَ الرَّسُولِ، فَيَكْفِينِى فَخْرًا أنَّ الْقُرآنَ الْكَرِيمَ سَجَّلَهَا، فَخَلَّدَ ذِكْرِى فى التَّارِيخِ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قَدْ بَعَثَ بِعُثمَانَ بْنِ عَفَّانَ إلَى قُرَيشٍ بِمَكَّةَ لِيُبْلِغَهُمْ أنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ زِيَارَةَ الْكَعْبَةِ. وَشَاعَ عِندَ الْمُسْلِمِينَ أنَّ الْكُفَّارَ قتلُوا «عُثمَانَ». فقرَّرَ الرَّسُولُ أنْ يُحَارِبَهُمْ. وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ لِلْبَيْعَةِ عَلَى الْقِتَالِ. وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ تَحْتِى. وَنَزَلَتْ عَنْهَا وَعَنِّى الآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

سَمِعَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالْبَيْعَةِ، فَخَافُوا وَفَزِعُوا. وَعَادَ عُثمَانُ مِنْ مَكَّةَ وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ قَتَلُوهُ. وَجَاءَ رَسُولٌ لَهُمْ يُعْلِنُ رَغبَةَ قُرَيْشٍ في ألا تَقُومَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ جَدِيدَةٌ لِمُدَّةِ عَشرِ سَنَوَاتٍ، وَيَحْمِلُ



شُرُوطًا للصُّلحِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ. وَسُمِّىَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَفيه ألا يَدْخُلَ الْمُسْلِمُون مكَّةَ هَذَا الْعَامَ، ولَهُمْ أَنْ يَحُجُّوا فى الْعَامِ التَّالِى ويَبْقَوا فى مكَّةَ ثَلاثَةَ أيَّامٍ. وأنْ يُعيدَ مُحَمَّدٌ إلَى قُرَيش مَنْ يأتى منْهَا إلَى صُفُوفِ الْمُسْلمينَ، وَلا تُعيدُ قُرَيشٌ مَنْ يَذْهَبُ إليْهَا من الْمُسْلمِينَ. ويَكُونُ مِنْ حَقِّ الْعَرَبِ أنْ يَنْضَمُّوا إلى مُحَمَّد أوْ إلى قُرَيش، ولَيْسَ لأحَدِ الطَّرَفَيْنِ أنْ يَعْتَدىَ عَلَى حُلَفاءِ الآخرِ.

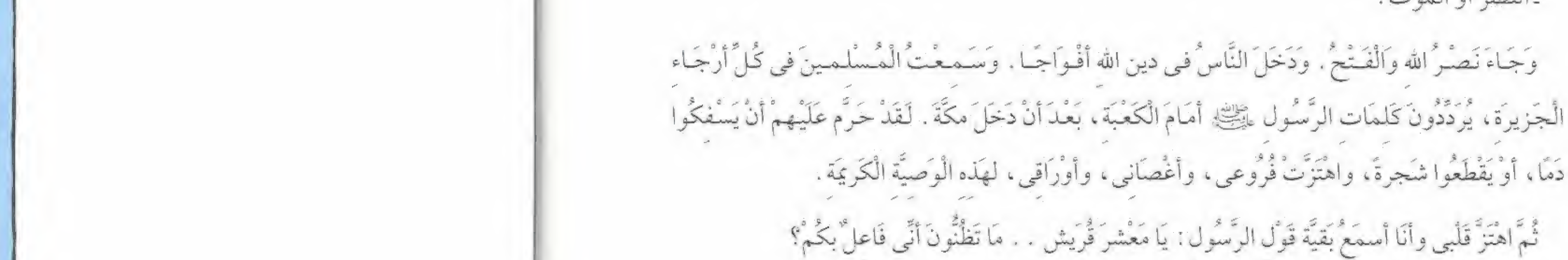
ولَمْ يَرْضَ الْكَثِيرُونَ من أصْحَابِ مُحَمَّد عَنْ هَذَا الصُّلْحِ، وَغَضِبُوا لأنَّ هذَا الاتِّفَاقَ يَجْعَلُهُمْ يُعِيدُونَ إلى قُرَيش مَنْ يأتى إلى الْمَدينَةِ مُسْلمًا. وَتَصَوَّرُوا أنَّ ذَلِكَ يُثْبِتُ ضعْفَهُمْ، ولَكنَّ الرَّسُولَ قَبلَ هَذَا الاتِّفَاقَ وَوَقَّعَ عَلَيْهِ.

وَمَعَ الأيَّامِ، تَبَيَّنَ الْمُسْلمُونَ - وأنَا مَعَهُمْ - أنَّ الاتِّفَاقَ كَانَ فى صالحهمْ. فَإنَّ إعَادَةَ الْمُسْلمينَ إلَى قُرَيشٍ ضَايَقَتْ أهْلَ مكَّةَ، لأنَّ هَؤُلاء كَثُرَ عَدَدُهُمْ، فَعَسْكَرُوا على الطَّرِيقِ بَيْنَ مكَّةَ والْمَدينَةِ، وقَاوَمُوا الْكُفَّارَ وأغَارُوا عَلَى قَوَافلهم، لدَرَجَة أنَّهُمْ طَلَبُوا منَ الرَّسُول أنْ يَسْتَبْقِيَهُمْ عنْدَهُ فى الْمَدينَة، وَلا يَرُدَّهُمْ إلى مكَّةَ. هذَا بَيْنَمَا لَمْ يَخْرُجْ وَاحدٌ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد ليَذْهَبَ إلى قُرَيْش. بَلْ لَقَدْ اهْتَزَّتْ قُلُوبٌ كَثيرَةٌ لمَوْقفه الْعَظيم، وَبَدأت الْقَبَائلُ تَدْخُلُ فى الدِّينِ الْجَديد، ممَّا جَعَلَ قُرَيشًا تَضيقُ بالصُّلْح وتَنْقُضُ الاتِّفَاقَ، وتَتَعَرَّضُ لقَبيلَة «خُزَاعَةَ» الَّتى انْضَمَّتْ إلى الرَّسُول عَلَيْه السَّلامُ. وَهُنَا أعْلَنَ النَّبىُّ انْتهَاءَ هذه الاتِّفَاقيَّة، وَذلكَ الصُّلْحِ.

وَمَا هِيَ إلا أيَّامٌ، حَتَّى رأيْتُ عَشَرَةَ آلاف مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُسَلَّحِينَ: يَزْحَفُون عَلى مَكَّةَ . . ووجَدَتْ قُرَيْشٌ نَفْسَها غَيْرَ قادرَةَ على مُحَارَبَتِهِم، فَتَقَدَّمُوا بلا أيِّ مُقَاوَمَة، لِكَيْ يَدْخُلُوا مكَّةَ فاتِحِينَ مُنْتَصِرِينَ.

وَلَكِنَّ أحَدًا لَمْ يَنْسَ يَوْمِي . . يَوْمَ الشَّجَرَة، حِينَ عَاهَدَ الْمُسْلِمُونَ النَّبِيَّ عَلَى الْقِتَال، وأقْسَمُوا:

ـ النَّصْرُ أوْ الْمَوْتَ.



وَجَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِين الله أفْوَاجًا. وَسَمِعْتُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ أرْجَاءِ الْجَزِيرَة، يُرَدِّدُونَ كَلِمَاتِ الرَّسُول ﷺ أمَامَ الْكَعْبَة، بَعْدَ أنْ دَخَلَ مَكَّةَ. لَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أنْ يَسْفِكُوا دَمًا، أوْ يَقْطَعُوا شَجرةً، واهْتَزَّتْ فُرُوعِي، وأغْصَانِي، وأوْرَاقِي، لِهَذِه الْوَصِيَّة الْكَرِيمَة.

ثُمَّ اهْتَزَّ قَلْبِي وأنَا أسْمَعُ بَقِيَّةَ قَوْلِ الرَّسُول: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش . . مَا تَظُنُّونَ أنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟

قَالُوا: خَيْرًا . . أخٌ كَرِيمٌ، وابْنُ أخٍ كَرِيم . . قَالَ: اذْهَبُوا، فأنْتُمُ الطُّلَقَاءُ.

وَظَلَلْتُ وَاقِفَةً مَكَانِي أسْمَعُ بَعْدَ ذَلِكَ أخْبَارَ انْتِصَار الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّد . . فِي أيَّام أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق . . ثُمَّ فِي أيَّام عُمَرَ بْن الْخَطَّاب.

وَعَرَفْتُ أنَّ نُبُوءَةَ الرَّسُول بأنَّ بِلادَ فَارِسَ والشَّام وَالْيَمَن سَتَدْخُلُ الإسْلامَ قَدْ تَحَقَّقَتْ، وأنَّ نُبُوءَتَهُ لِسُرَاقَةَ بْن مَالِك بأنَّهُ سَيَلْبَسُ سِوَار كِسْرَى قَدْ تَحَقَّقَتْ. فَبَعْدَ فَتْح الْمَدَائِن، عَاصِمَة فَارِس، اسْتَدْعَاهُ عُمَرُ إلَيْه، وألْبَسَهُ ذَلِكَ السِّوَارَ.

لَقَدْ سَمِعْتُ كُلَّ هذا مِنْ الْكَثِيرِين الَّذِينَ كَانُوا يَزُورُونَنِي لِلتَّبَرُّك بِي، وَلِيَذْكُرُوا يَوْمِيَ الْعَظِيم، حِينَ جَلَسَ الرَّسُولُ تَحْتِي، يَتَلَقَّى الْبَيْعَةَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْمَعُ الْعَهْدَ عَلَى: النَّصْر أو الْمَوْت.

وَخَافَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب مِنْ كَثْرَة زُوَّارِي، فأمَرَ بأنْ يَقْطَعُونِي وَيَقْتَلِعُونِي مِنْ جُذُورِي. وَلَمْ أهْتَمَّ لِذَلِك وَلَمْ أحْزَن. يَكْفِي أنَّ شَجَرَةَ الإسْلام أصْبَحَتْ تُظَلِّلُ الْمَلايِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ الإنْسَان، وَرِسَالَتِه الْعَظِيمَة، عَلَيْه أفْضَلُ الصَّلاة وَالسَّلام.



أنا دِينارٌ





واسْمِى أحْيَانًا «الْجُنَيْه» وَمِنْ قَدِيمِ الزَّمَنِ، وَالنَّاسُ يَجْرُونَ ورَائِى، وَيُرِيدُ كُلٌّ مِنْهُمْ أنْ يُصْبِحَ عِنْدَهُ الْكَثِيرُ مِنِّى، خَاصَّةً إذَا كُنْتُ مِنَ الذَّهَبِ. إنَّ بَرِيقِى يَسْحَرُ النَّاسَ، وَرُبَّمَا دَفَعَهُمْ ذَلِكَ لِلْقِتَالِ مِنْ أجْلِى. وَهُمْ يُرِيدُونَ أنْ يَحْصُلُوا عَلَىَّ بِكُلِّ الطُّرُقِ. وَبَعْضُهُمْ يَكْتَنِزُنِى وَلا يُنْفِقُنِى، لِكَىْ يُصْبِحَ غَنِيًا.

وَلَكِنِّى رَأيْتُ إنْسَانًا لَمْ يَكُنْ يُرِيدُنِي، وَلَمْ يَحْتَفِلْ بِى. قَابَلْتُهُ في مَكَّةَ مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ ألْفٍ وأرْبَعمائة سَنَة. وكَانَ أهْلُ مَكَّةَ يَعْبُدُونَ الأصْنَامَ وَيَعْبُدُونَنِى. أمَّا هُوَ فَلَمْ يَعْبُدِ الأصْنَامَ وَلَمْ يَعْبُدْنِى. بَلْ عَامَلَنِى وَعَامَلَ الأصْنَامَ فِى إهْمَالٍ شَدِيدٍ.

وَلَقَدْ سَمَّوْهُ الأمِينَ.. مُحَمَّدًا الأمِينَ.. لأنَّهُ كَانَ أمِينًا فِى كُلِّ شَىْءٍ.. أمِينًا فِى كَلامِهِ، أمِينًا فِى عَمَلِهِ، أمِينًا فِى تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ. لَمْ تَمْتَدَّ يَدُهُ قَطُّ إلى دِينَارٍ لَيْسَ لَهُ. فَاحْتَفَظَ كَثِيرُونَ بِأمْوَالِهِمْ عِنْدَهُ، وَأتْمَنُوهُ عَلَى تِجَارَاتِهِمْ، ثِقَةً فِيهِ واطْمِئْنَانًا إلى أمَانَتِهِ.

وَلَمْ تَكُنْ أسْوَاقُ صَنْعَاءَ وَدِمَشْقَ وَمَكَّةَ وَيَثْرِبَ تَعْرِفُ مِثْلَ هَذِهِ الأمَانَةِ.. لِذَلِكَ طَلَبَتْهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لِيُتَاجِرَ فِى أمْوَالِهَا. فَإِذَا بِهِ يَرْبَحُ الْكَثِيرَ، وَلا يُخْفِى مِنَ الرِّبْحِ شَيْئًا لِنَفْسِهِ. فَتَهْتَزّ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ لِهَذَا الْخُلُقِ الرَّفِيعِ، وَتَسْألُهُ إنْ كَانَ يَقْبَلُ أنْ يَتَزَوَّجَهَا. وَيُوَافِقُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَعِيشُ مَعَهَا حَيَاةً كُلُّهَا شَرَفٌ وأمَانَةٌ.

وكَانَ يَكْسِبُنِى، أنَا الدِّينَارَ، بِعَرَقِ جَبِينِهِ، لا يَأْخُذُنِى غَصْبًا، وَلا يَسْتَوْلِى عَلَىَّ بِدُونِ حَقٍّ، إنَّمَا يَبْذُلُ الْجُهْدَ فِى الْعَمَلِ وَيَنَالُ أجْرَ هَذَا الْجُهْدِ.

وكَانَ لا يَحْتَفِظُ بِى وَلا يَكْتَنِزُنِى، وَعِنْدَمَا هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ مِنْ مَكَّةَ، رَفَضَ أنْ يَأخُذَ نَاقَةَ صَدِيقِهِ أبِى

بكر قبل أن يشتريها ويدفع ثمنها. وحين وصل إلى المدينة ورغب فى أن يحصل على قطعة الأرض التى بنى عليها مسجده وبيته، لم يقبل أن يمتلكها إلا بعد أن دفع ثمنها.

لقد كان عليه الصلاة والسلام زاهدًا فى الحصول علىّ، كريمًا فى إنفاقى، حتى إننى قليلاً ما قضيت الليلة وأنا فى بيته. وما أكثر الحكايات التى يمكن أن أرويها عنه والتى حدثت لى معه، وكانت تدهشنى:

* حملوا إليه تسعين ألف درهم - أنا بينها - وقد غنمها المسلمون فى إحدى المعارك، فوضعها على حصيرة فى المسجد، وبدأ يوزعها على المسلمين، ولم يبق له شىء، هو وأهل بيته.

* وجاءه فقير يطلب حسنة. فأجلسه بجانبه انتظارًا لرزق يبعث به الله. وجاء رجلان آخران يطلبان مساعدة فأجلسهما بجانب الأول. وبعد قليل جاء رجل يحمل للرسول أربعة دنانير لينفقها كما يشاء. فأعطى الرسول كل واحد من الرجال الثلاثة دينارًا، وبقيت أنا الرابع معه، وقد أسعدنى ذلك كثيرًا ولكن سرعان ما رفعنى بين أصابعه، وسأل أصحابه:

- من يأخذ هذا الدينار؟

ولما لم يطلبنى أحد من أصحابه، الذين تعلموا منه الزهد فى المال وعدم الحرص علىّ، أخذنى رسول الله ﷺ وعاد إلى بيته وأنا معه، ووضعنى تحت وسادته، وحاول أن ينام، فلم يستطع، وظل يتقلب طوال ليلته فى قلق، إلى أن أشرق الصباح. ومع أول ضوء فى النهار، خرج بى ليبحث عن الفقراء، ليوزعنى عليهم. وما إن فعل ذلك حتى هتف:



الآن استرحت!!

* وتعلم المسلمون من رسول الله الزهد، وتبعوه فى عدم الاهتمام بى، وساروا على هديه فى إنفاقى فى سبيل الله.

وقد رأيت عثمان بن عفان، تأتيه تجارة من الشام فى فترة اشتدت فيها حاجة الناس إلى الطعام. وانتهز التجار الفرصة فرفعوا أثمان الأشياء التى يبيعونها، وصار على المشترى أن يدفع دنانير كثيرة فى السلع التى كان يدفع فيها دينارًا واحدًا مثلى. وقد سميت هذه السنة، عام الرمادة، أى عام المجاعة.

جمع عثمان بن عفان الناس، وحوله أكوام البضائع وسألهم: كم تدفعون ثمنًا للشىء الذى كان ثمنه دينارًا؟

- قالوا: ندفع دينارين.. ندفع ثلاثة دنانير...

فابتسم عثمان، وقال:

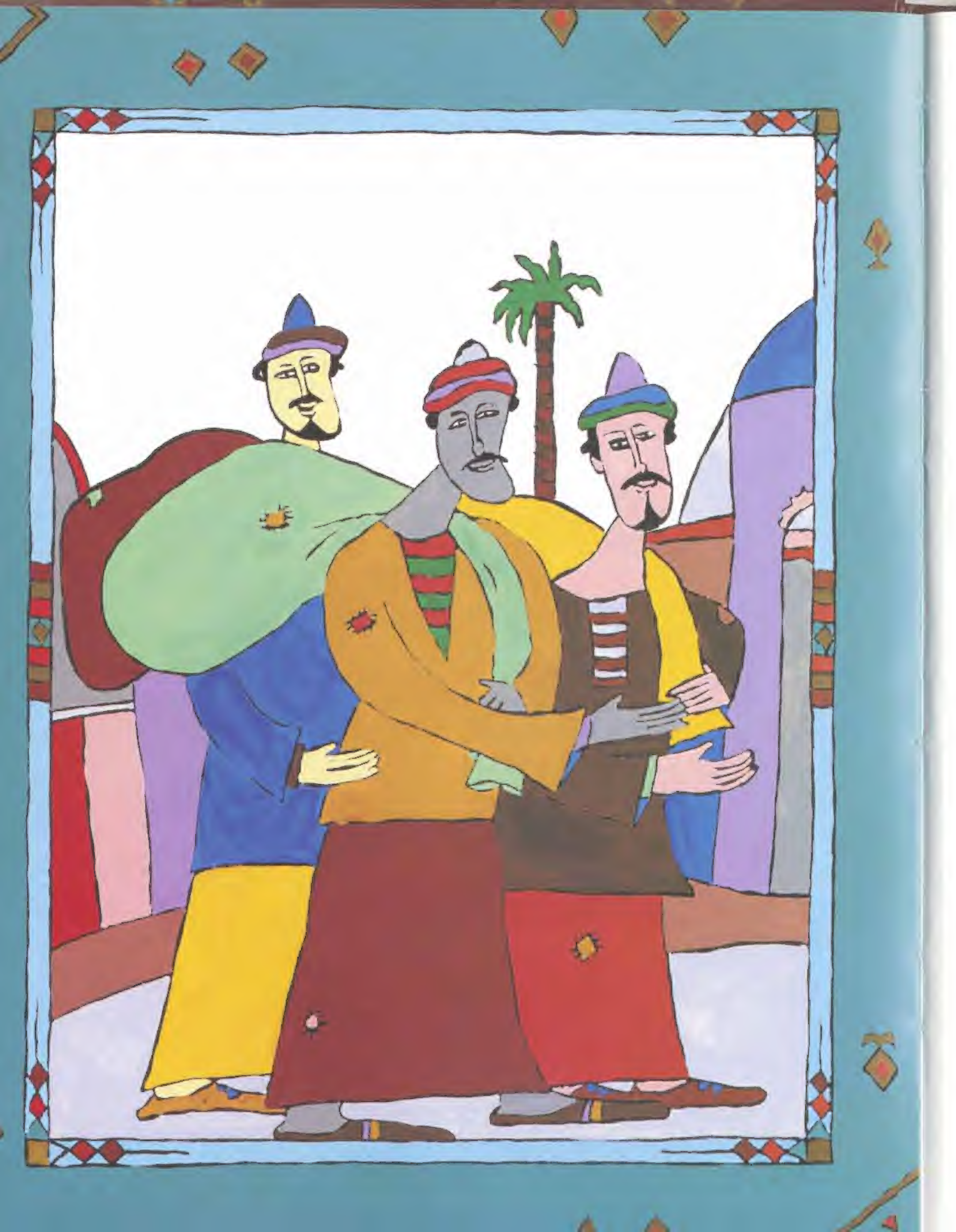
- جاءنى فيها ثمن قدر ثمنها عشر مرات.. هل يستطيع أحد منكم أن يدفع هذا الثمن؟

صمت الناس.. إن الثمن مرتفع جدًا لا يقدرون عليه.. صمتوا فى عجز وفى فزع من أن يشتد بهم الجوع. وقطع عثمان الصمت وقال فى ثقة وإيمان:

- إن الله يعطى عن الحسنة، عشرة أمثالها، فأنا أعطى هذه التجارة كلها لله.

ووزع عثمان بن عفان كل تجارته على المسلمين دون أن يأخذ منهم دينارًا واحدًا.. إنه يطيع الرسول الكريم الذى شبه من يمنع ماله عن الناس بمن يعبدنى - أنا الدينار - ولا يعبد الله.. والذى قال أيضًا:

تعس عبد الدينار والدرهم!



وَمُنْذُ سَمِعْتُ هذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ، وأنَا أشْعُرُ بأنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَنى - أنَا الدِّينارَ - أناسٌ تُعَسَاءُ لا يَعْرِفُونَ مَعْنَى السَّعَادَة.

* وكَثِيرًا مَا عَرَضُوا عَلَى الرَّسُول آلافَ الدَّنَانِيرِ، عَرَضَتْنَا عَلَيْه قُرَيْشٌ لكَىْ يَكُفَّ عَنْ دَعْوَةِ النَّاسِ للإسْلام.. وَقَدَّمَنا الْمُسْلمُونَ إلَيْه غَنيمَةً فى الْحُرُوب.. وَدَفَعَ بنَا الْبَعْضُ إلَيْه ليُنْفقَنَا عَلَى بَيْته وأهْله، وَمَا قَبلَ منَّا شَيْئًا، وَرَفَضَنَا جَميعًا وَهُوَ يَقُولُ:

- لا، يَا رَبِّ.. أجُوعُ يَوْمًا وأشْبَعُ يَوْمًا. فَالَّذى أجُوعُ فيه، أدْعُوكَ وأتَضَرَّعُ إلَيْكَ. وَالَّذى أشْبَعُ فيه، أحْمَدُكَ وأُثْنى عَلَيْكَ.

* وَظَلَّ عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ فَقيرًا منَ الْمَال طيلَةَ عُمْره. وَفى مَرَضه الأخير جَمَعَ الْمُسْلمينَ وَسألَهُمْ: مَنْ أخَذْتُ لَهُ مَالاً، فَهذَا مَالى فَلْيأخُذْ مِنْهُ.

ووَقَفَ رَجلٌ وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لى عنْدكَ ثَلاثَةُ دَرَاهمَ. فَسَدَّدَهَا الرَّسُولُ فى الْحَال.

ولَسْتُ أنْسَى مَوْقفَهُ الْعَظيم - عَلَيْه أفْضَلُ الصَّلاة وَالسَّلام - يَوْمَ اشْتَدَّ به مَرَضُ الْوَفَاة، وَهُوَ يَقُولُ لزَوْجَته السَّيِّدَة عَائشَةَ بنْت أبى بَكْرٍ:

- يَا عَائشَةُ.. مَا فَعَلْت بذلكَ الذَّهَب؟

- أىّ الذَّهَب؟!

- الدَّنَانير السِّتَّة الَّتى عنْدى.

- هىَ عنْدى.

- وَمَا ظَنُّ مُحَمَّد بربِّه، لَوْ لَقىَ اللهَ وَهذه عنْدَهُ؟! أنْفقيهَا كُلَّهَا صَدَقَةً.

- سأنْفقُهَا يَا رَسُولَ الله.

ـ اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مِسْكِينًا، وأَمِتْنِى مِسْكِينًا، واحْشُرْنِى فى زُمْرَةِ الْمَسَاكِين .

وقَدْ اسْتَجابَ اللهُ لِدُعاءِ النَّبِىِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَعِنْدَمَا تُوفِّى، لَمْ يَتْرُكْ دِينارًا، ولا دِرْهَمًا، وكَانَ كُلُّ مَا تَرَكَهُ :

ـ قَلِيلاً مِنْ الشَّعِيرِ عِنْدَ زَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ .

ـ بَغْلَتَهُ الْبَيْضاءَ الَّتى كَانَ يَرْكَبُهَا .

ـ أَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً لابْنِ السَّبِيلِ .

ـ سِلاَحَهُ .

وكَانَتْ دِرْعُهُ مَرْهُونَةً عِنْدَ يَهُودِىٍّ مِنْ أَجْلِ طَعَامِهِ وطَعَامِ أَهْلِهِ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا مِنْه أَنَّ هذه الْحَيَاةَ الدُّنْيَا زَائِفَةٌ، وفَانِيَةٌ، وأَنَّ حَيَاةً أُخْرَى أَرْوَعَ وأَجْمَلَ وأَخْلَدَ تَنْتَظِرُهُمْ فى الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَهْتَمُّوا بى أَنَا الدِّينَارَ . . أو الذَّهَب .

* دَخَلَ ﷺ يَوْمًا عَلَى ابْنَتِه فَاطِمَةَ فى بَيْتِهَا . فَوَجَدَ فى يَدِهَا سِلْسِلَةً مِنْ ذَهَبٍ وتَقُولُ عَنْهَا لامْرَأَةٍ عِنْدَهَا : هذه أَهْدَاهَا لى أَبُو الْحَسَنِ «تَقْصِدُ عَلِىَّ بْنَ أَبى طَالِبٍ زَوْجَهَا» . فَقَالَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ :

ـ يَا فَاطِمَةُ! أَيَسُرُّكِ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ، ابْنَةُ رَسُولِ اللهِ فى يَدِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ؟

ثُمَّ خَرَجَ ولَمْ يَقْعُدْ . .

فَأَرْسَلَتْ فَاطِمَةُ بِالسِّلْسِلَةِ وبَاعَتْهَا، واشْتَرَتْ بِثَمَنِهَا عَبْدًا فَأَعْتَقَتْهُ .

ولَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ بِذلِكَ قَالَ :

ـ الْحَمْدُ للهِ الَّذى نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ .

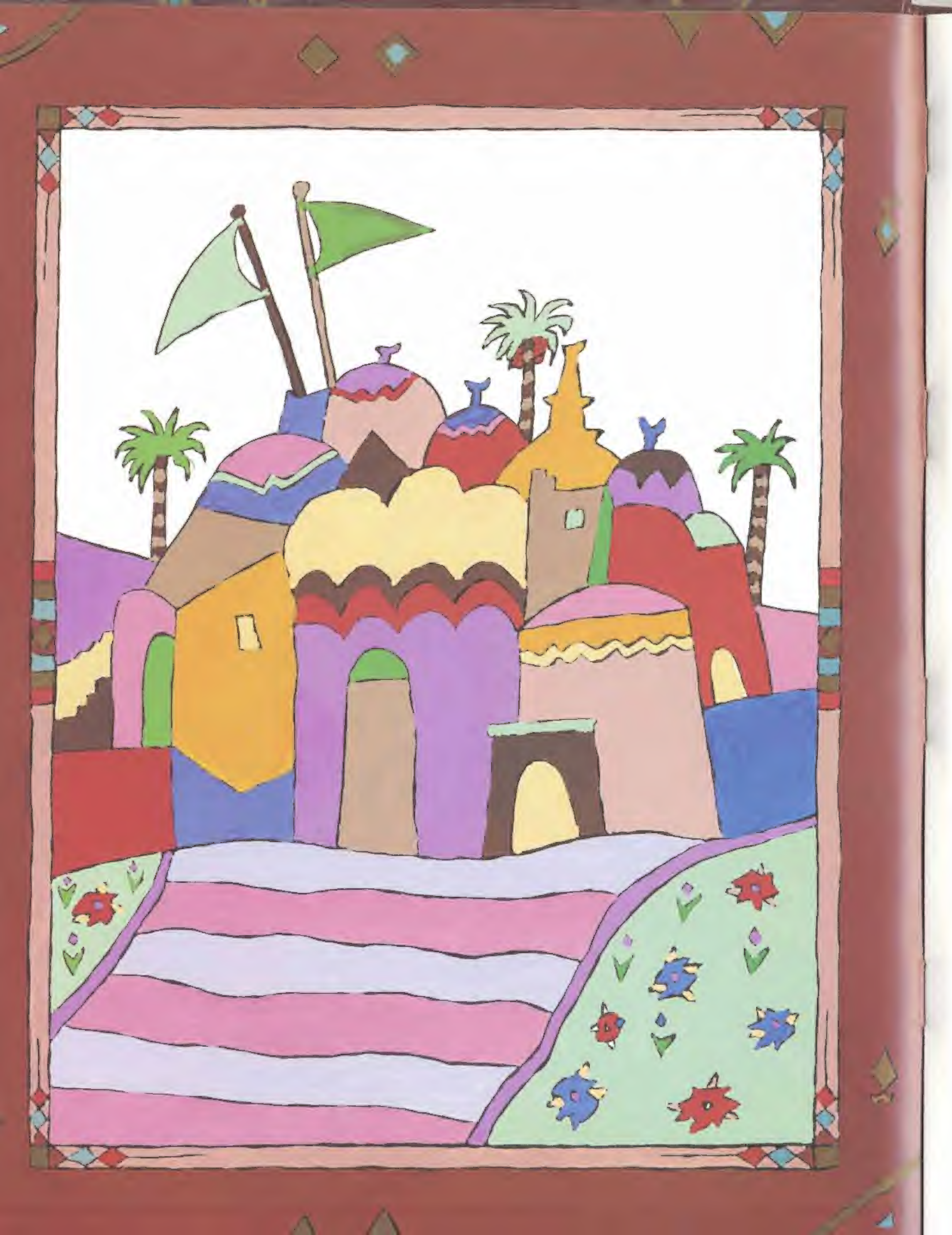
وكَانَ دُعَاؤُهُ ﷺ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا»، أى بِالْقَدْرِ الَّذى يَكْفى فَقَطْ حَاجَتَهُمْ ولا يَزِيدُ عَلَيْهَا .





أَنَا رَايَةٌ





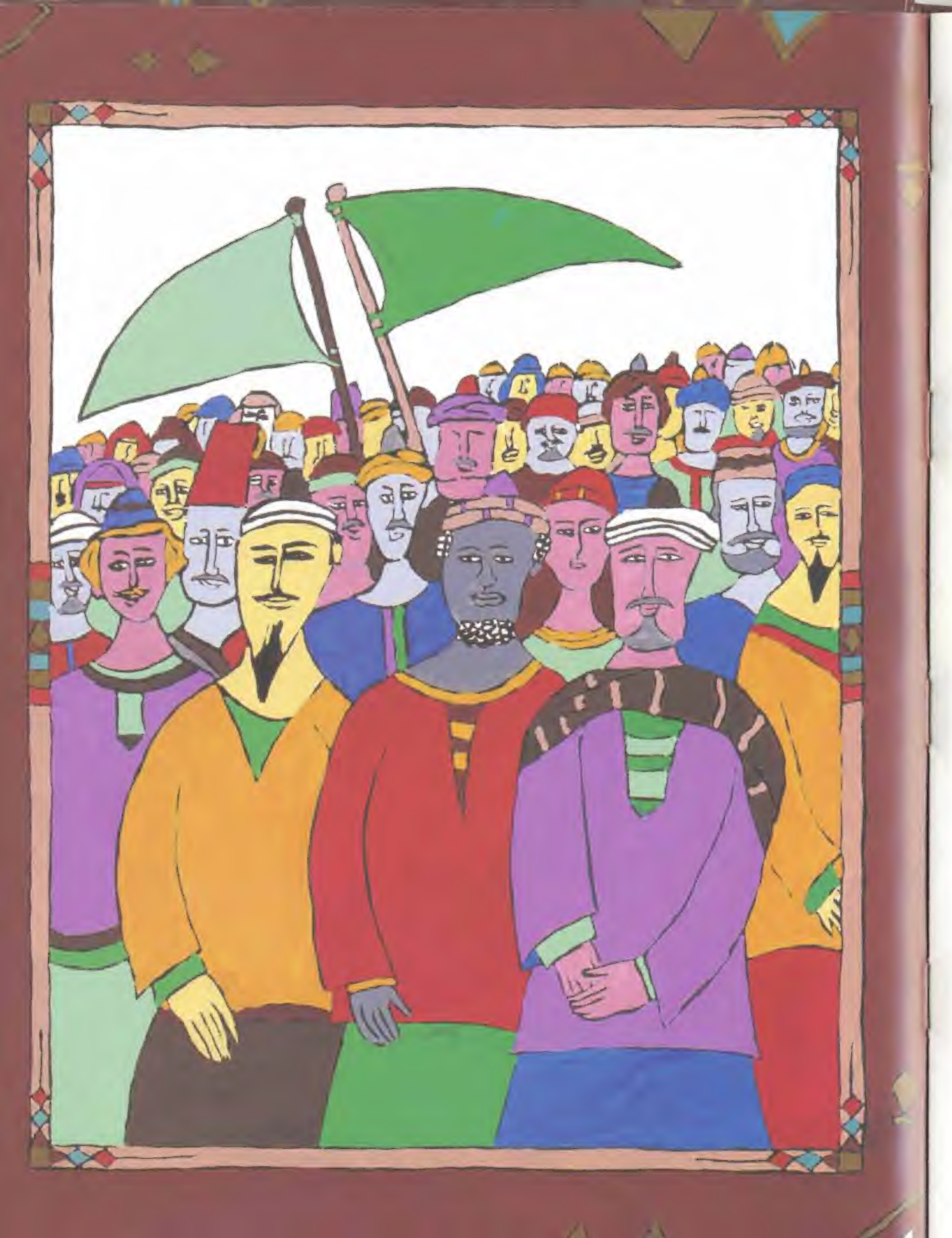
وأَحْيانًا أَكُونُ رَايَةً مِنْ قُمَاشٍ . . وأَحيَانًا أَكُونُ بِلا قُمَاشٍ . فأنا رَايَةُ الإِسْلامِ . . دينِ اللهِ الْحَنيفِ . . الَّذى أرْسَلَ بِهِ مُحَمَّدًا خَاتمًا للأَنْبياءِ والْمُرْسَلينَ .

وفى حَيَاتى أيَّامٌ لا تُنْسى ، وأَحْدَاثٌ يُسجِّلُها التاريخُ بِأَحْرُفٍ بَارِزَةٍ من النُّورِ .

وكَانَتْ أوَّلَ مَدِينَةٍ رَفرفْتُ فى سَمَائِهَا هيَ «يَثْرِبُ» الَّتى سُمِّيَت الْمَدينَةَ الْمُنوَّرَةَ ، بَعْدَ أنْ هَاجَرَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ وأَصْحَابُهُ نَجاةً بِدينِ اللهِ مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ وكَيْدِها وتَنْكِيلِهَا . وقَدْ كُنْتُ أُرفْرِفُ وأَنَا فَرِحَـةٌ بالإِخاءِ بَيْنَ الْمُهَاجِـرِينَ والأَنْصَارِ ؛ وَضَرَبَ الأَنْصَارُ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ فى اسْتِضَافَتِهِمْ لِلْمُهَاجِرِينَ . قَدَّمُوا لَهُمْ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ لِيَقْتَسِمُوهُ مَعَهُمْ .

وكَـانَتْ أَوَّلُ مَعْـرَكَةٍ أَكُـونُ فيـهَـا اللِّوَاءَ هِىَ مَعْـرَكَةَ بَدْرٍ . وَقَـدْ دَافَعَ عَنِّى الأَبْطَالُ الْبَـوَاسِلِ مِنَ الْمُـسْلِمِينَ دِفَـاعًـا رَائِعًـا وَعَظِيـمًـا تُسَـانِدُهُمْ الْمَـلائِكَةُ ، فَـهَـزَمُـوا الْكُفَّـارَ شَـرَّ هَزِيمَةٍ وَرَفَـعُـونى عَـالِيَـةً خَفَّاقَةً . . أنا رَايَةَ الإِسْلامِ .

وكِـدْتُ أُنْتَكَسُ فى «أُحُدٍ» ثُمَّ فى «الْخَنْدَقِ» . ولَكِنَّ اللهَ أَمَدَّ الْمُسْلِمِينَ بِعَوْنِهِ وَفَضْلِهِ ، فَصَبَرُوا ، وصَابَرُوا وَجَاهَدُوا وَاسْتُشْهِدُوا ، وَاسْتَعْذَبُوا الْمَوْتَ فى سَبِيلِ اللهِ ولِنُصْرَةِ دِينِ اللهِ ، فَبَقِيتُ عَالِيَـةً خَفَّاقَةً ، يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ عَدَدُ مَنْ يَسْتَظِلُّونَ بى . . أنا رَايَةَ الإِسْلامِ .



وَارْتَفَعْتُ وَعَلَوْتُ فى سَمَاء مكَّةَ يَوْمَ فَتْحِ مكَّةَ . . يَوْمِ جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فى دِينِ الله أَفْوَاجًا . . وَانْتَكَسَتْ رَايَةُ الأَصْنَامِ وَطُوِيَتْ، وَلَمْ تَقُمْ لها بَعْدَ ذلك قَائمَةٌ .

وبَعْدَ فَتْحِ مكَّةَ بعامٍ واحد، كُنْتُ أُرَفْرِفُ فَوْقَ الْجَزِيرَة الْعَرَبِيَّة كُلِّهَا، بَعْدَ أَنْ جَاءَتِ الْوُفُودُ تلْو الْوُفُودِ إلى الرَّسُول تُعْلِنُ إِسْلامَهَا، وَاسْتِظْلالَهَا بى . . أَنَا رايَةَ الإِسْلامِ .

وَفى السَّنَة الْعاشرَة للْهِجْرَة، يَوْمَ أَنْ حَجَّ الرَّسُولُ حَجَّةَ الوداع كُنْتُ أُرَفْرِفُ مِنْ فوقِ ما يَزِيدُ على مائَة أَلْفِ مُسْلِمٍ، كانُوا يَطُوفُونَ مَعَ مُحَمَّد حَوْلَ بَيْت الله الحَرَامِ . مَا أَرْوَعَهُ يَوْمًا! وَمَا أَعْظَمَ ذكْرَاهُ!

وَتَطُوفُ بى الذِّكْرَيَاتُ، وَتَتَتَابَعُ الأَحْدَاثُ . فَقَدْ رَافَقْتُ رَسُولَ الله فى جَمِيعِ خُطُوَاته خُطْوَةً خُطْوَةً، وَفى جَمِيعِ غَزَوَاتِه، غَزْوَةً غَزْوَةً . وعَرَفْتُ أَيَّامَهُ وَلَيَاليَهُ، وَشَهِدْتُ أَعْمَالَهُ، وَسَمِعْتُ أَقْوَالَهُ . وأَشْهَدُ أَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا فى كُلِّ شَىْءٍ . . كَانَ إِنْسَانًا، وَقَائدًا، وَرَائدًا، وَشُجَاعًا وَمِقْدَامًا وكَرِيمًا وَحَكيمًا وَسَمْحًا وَنَبِيلاً . . لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحْصِىَ مَناقِبَهُ أَوْ أَعُدَّ سجَايَاهُ . وكَفَى وَصْفُ الله لَهُ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

لَقَدْ أحْبَبْتُهُ ﷺ ، حُبًّا جَمًّا، كَمَا أحَبَّهُ كُلُّ النَّاس. وكُنْتُ أزْهُو وأسْعَدُ وأنَا أرَفْرِفُ كُلَّ يَوْم فَوْقَ رءُوس أفْوَاج وأفْوَاج جَديدَة منَ النَّاس تَفدُ إلَيْه تُعْلنُ إسْلامَهَا، وتُعَاهدُهُ عَلى أنْ تَنْشُرَ دعْوَتَهُ وتَرْفَعَنى.. أنَا رَايَةَ الإسْلام.

إلى أنْ كَانَ يَوْمٌ، هُوَ أسْوأ يَوْمٍ فى حَيَاتى، اضْطَرَبْتُ فيه اضْطرابًا شَديدًا، وهَزَّنى الْفَزَعُ، وأنَا أسْتَمعُ إلى النَّبإ الَّذى لَمْ أصَدِّقْهُ مثْلَ الْكَثيرينَ منَ الْمُسْلمينَ. عمرُ بنُ الخَطَّاب نَفْسُهُ لَمْ يُصَدِّقْ، وهَدَّدَ مَنْ يُرَدِّدُ النَّبأ. وبَقىَ الْمُسْلمُونَ فَتْرَةً فى حَيْرَة وفَزَع واضْطراب، إلى أن ارْتَفَعَ صَوْتُ أبى بكْرٍ يَقُولُ:

« أيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فإنَّ محمدًا قَدْ مَاتَ. ومَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإنَّ اللهَ حَىٌّ لا يَمُوتُ».

ثُمَّ قرأ عَلَيْهمْ قَوْلَهُ تَعَالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ منْ قَبْله الرُّسُلُ أفإن مَّاتَ أوْ قُتلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابكُمْ ومَنْ يَنْقَلبْ عَلَى عَقبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئًا وسَيَجْزى اللهُ الشَّاكرين﴾

فيَقُولُ عُمَرُ: فكأنِّى لَمْ أتْلُ هذه الآيَةَ قَطُّ.

ويَسُودُ النَّاسَ صَمْتٌ طَويلٌ حزينٌ. ولكنْ لا بُدَّ منْ أنْ يَخْرُجُوا منْهُ. إنَّ هُنَاكَ جَيْشًا يتَّجه إلى الشَّام ويَحْملُ رَايَتَهُ أسَامَةُ بْنُ زَيْد، أعَدَّهُ الرَّسُولُ قَبْلَ وفَاته.

وهُنَاكَ غَيْرُ ذَلكَ الَّذينَ انْتَهَزُوا فُرْصَةَ وفَاة الرَّسُول وارْتَدُّوا عَن الإسْلام، والذينَ كَفُّوا عَنْ دَفْع الزَّكَاة، والَّذينَ أعْلَنُوا الْعصْيَانَ وحَاوَلُوا أنْ يُنْزلونى منْ فَوْقهمْ.. أنَا رايَةُ الإسْلام!

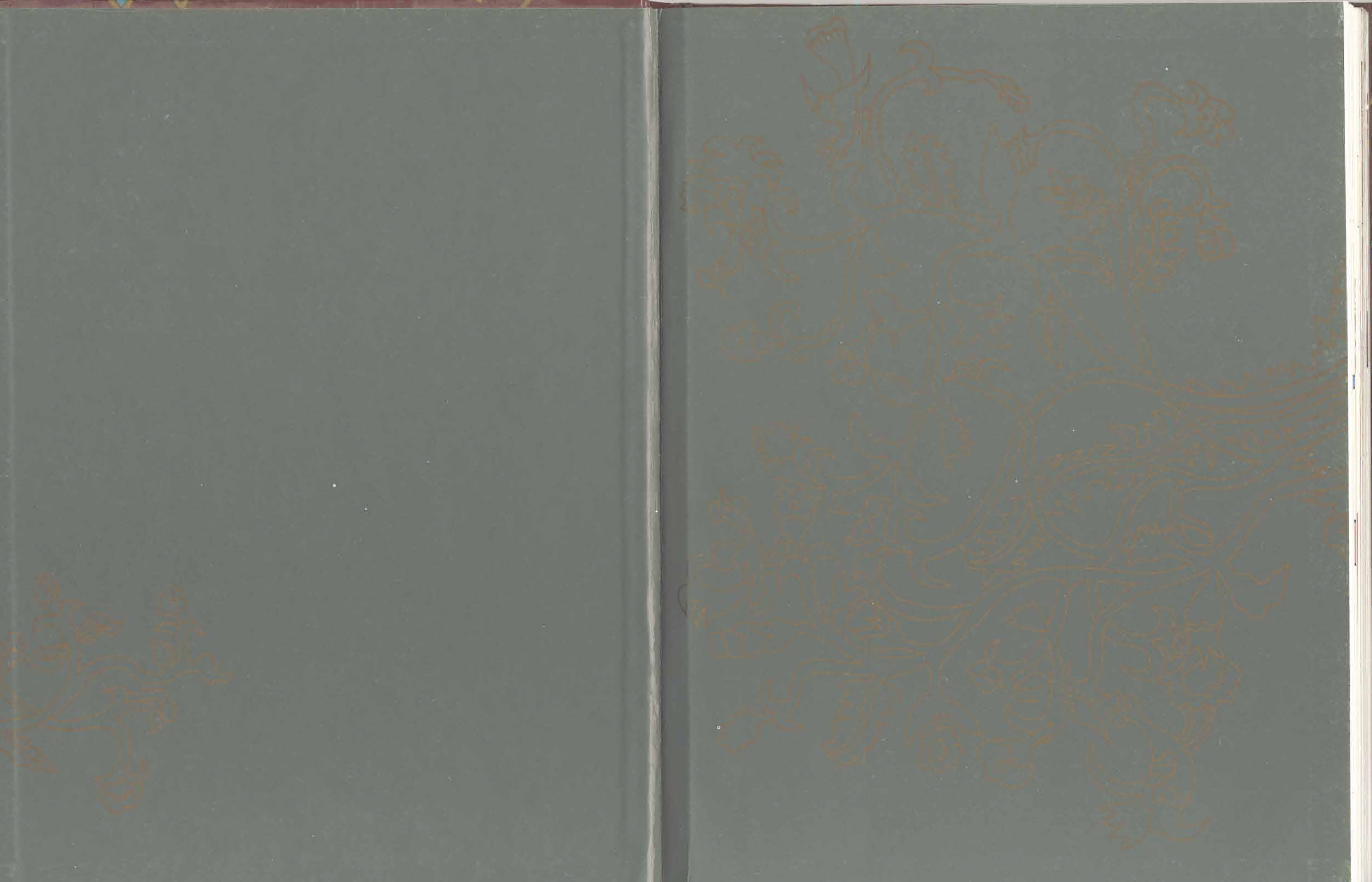
وتَتَدَافَعُ الأحْدَاثُ كَرَّةً بَعْدَ أخْرَى، ويَعُودُ الْمُرْتَدُّونَ إلى الإسْلام، ويَدْفَعُ الزَّكَاةَ مَنْ كَانُوا قَدْ تَوَقَّفُوا عَنْ دَفْعهَا، ويُقْضَى عَلَى الْعصْيَان.. وأعُودُ أنَا رَايَةَ الإسْلام وأرْتَفعُ فى كُلِّ مكان ارْتَفَعْتُ منْ قَبْلُ فيه.

وعَلَى يَد خَالد بن الْوَليد، وأبى عُبَيْدَةَ بْن الْجَرَّاح، وسَعْد بْن أبى وَقَّاص، وعَمْرو بْن الْعَاص، وأسَامَةَ بْن زَيْد وكثيرينَ وكَثيرينَ غَيْرهمْ منْ جُنُود الله الْمُغَاوير، أرْتَفعُ وأعْلُو فَوقَ كسْرى وإيْوانه، وفَوقَ بلاد الروم وحصونهم.

وتَتَتَابعُ الْفُتُوحَات.. حتَّى أصلَ إلى الأنْدَلُس غَرْبًا، وإلى الصِّين شَرْقًا.. ولْيُصْبح عَدَدُ مَنْ يَسْتَظلُّ الآنَ بى، أنَا رَايَةَ الإسْلام، مَا يَزيدُ عَلى سَبْعمائَة ملْيُون مُسْلم ومُسْلمَة.. منْ جميع الأجْنَاس ومنْ مُخْتَلف الشُّعُوب.



المحتويـات





حياة محمد ﷺ في عشرين قصة

- كتاب فريد فى المكتبة العربية.. والإسلامية.
- فريد فى فكرته.. وفى أسلوبه.. وفى تناوله.. وفى رسومه.
- فهو أول كتاب عربى يفوز ناشره بأكبر جائزة عالمية لكتب الأطفال هى جائزة الآفاق الجديدة ٢٠٠٠ فى معرض بولونيا الدولى لكتب الأطفال، وذلك بعد أن شرف بفوزه بجائزة راعية ثقافة الطفل السيدة سوزان مبارك لأفضل ناشر عام ١٩٩٩.
- من خلال عشرين قصة تجرى على ألسنة المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان، استطاع المؤلف الموهوب عبد التواب يوسف أن يأخذنا فى رحلة ممتعة لإلقاء الضوء على جوانب من النبع الصافى المتجدد لسيرة الرسول الكريم الذى أرسله الله رحمة للعالمين، وليصبح هذا الكتاب علامة بارزة فى مسيرة كاتبه الحافلة بالعطاء لجيلنا الجديد تثقيفًا وإمتاعًا.
- ويسر دار الشروق أن تقدم هذه الطبعة الجديدة فى إخراج متميز ورسوم بديعة للفنان الموهوب صلاح الدين بيصار الذى نالت أعماله كثيرا من الجوائز المصرية والعالمية.

إبراهيم المعلم

دار الشروق